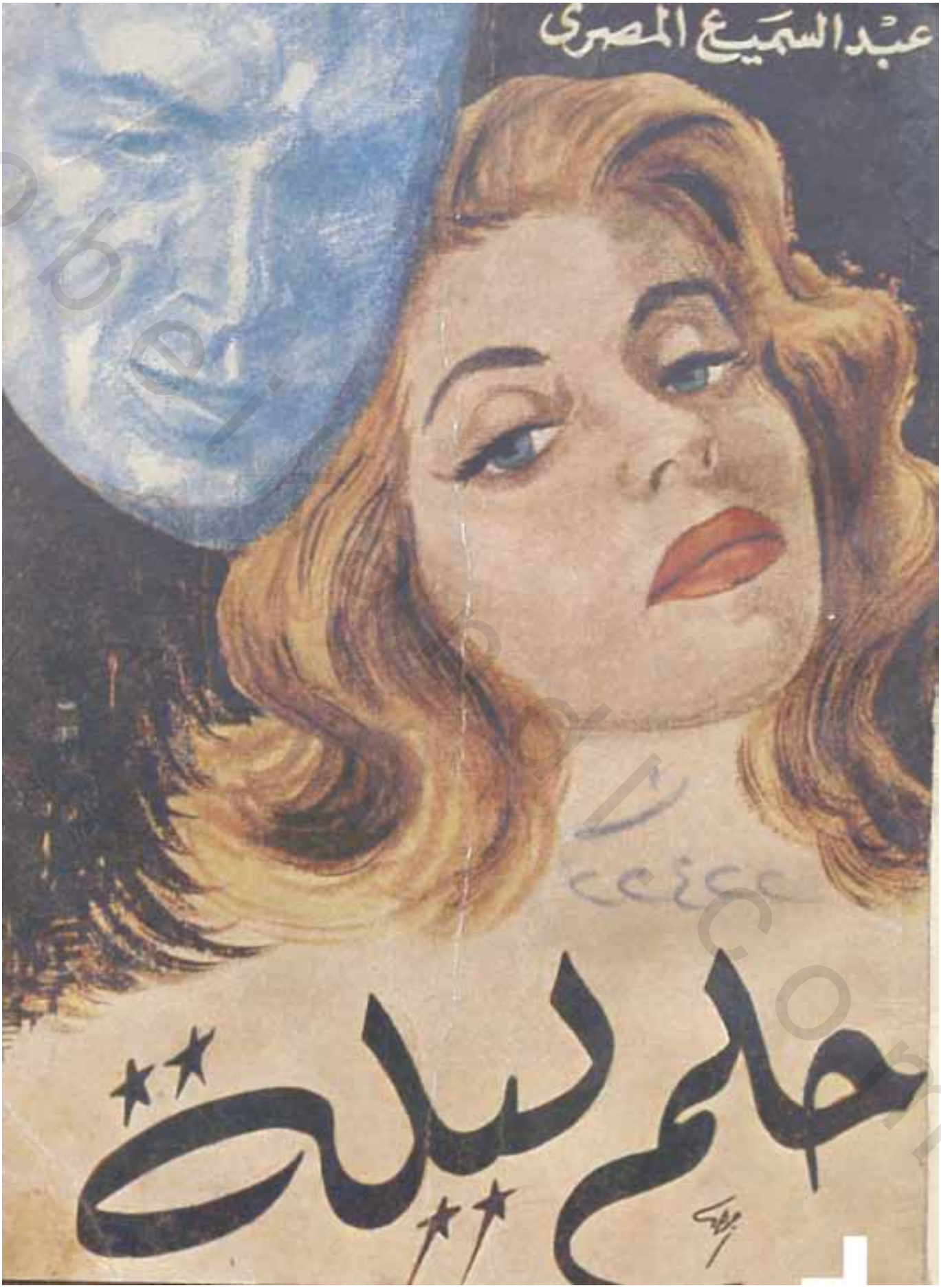
عبد السميع المصري
حلم ليلة

obeikandl.com

عبد السميع المصري

حلم ليلة

obeikandl.com

مقـــدمـــة

« علم ايزه » قصة أعتز بها كثيراً وقد كتبتها منذ أعوام محاولا
ن أقدم للقارىء العربى أنموذجاً للقصص الذى يعتمد على التحليل
لنفسانى وكان يومئذ بدعاً جديداً فى دنيا القصة لكنها ظلت حبيسة
ى إلى أن شاء لها الله النشور فى يوم معلوم لتتصدر هذه المجموعة
ن القصص القصيرة التى اخترت لها عنواناً اسم قصتى العزيزة .

وإنى لأصدقك القول — أيها القارىء الكريم — فى أنى
اولت أن أجمع بين دفتى هذا الكتاب ألواناً مختلفة من فنون القصة
نهد طاقتى لكنى أعترف بأن الطابع الغالب على كتابتى هو طابع
واقعية التى تعنى بالحوادث أكثر من الأشخاص وتعنى بالواقع وتعتقد
ن فى تسلسل أحداث الحياة بياناً أبلغ من أى بيان وأسلوباً أروع
ن كل أسلوب .

ولا أجد خيراً منك أيها القارىء فى نهضتك الحديثة وصحوتك
رائعة أحق بأن أهدى إليه كتابى .

فإليك أقدم هذا الكتاب العربى المصرى .

وإليك أهدى هذا الجهد المتواضع .

٣٠ يونية سنة ١٩٥٤ عبد السميع المصرى

حلم ليلة

ظهر الدكتور . . . يتأهب لمغادرة العيادة عندما دفع الباب وظهرت منه سيدة فى نهاية الحلقة الثالثة من عمرها بادية الانفعال متغضنة الجبين ممتقعة اللون ترتجف شفتاها فى عصبية بادية ، وقد ارتدت معطفاً من الفراء الفاخر فوق ثوب من الصوف الأزرق قاتم اللون ، انسدل فى إحكام على جسم بديع التركيب متناسق الأجزاء .

كانت الساعة الثامنة مساء تقريباً ، والبرد قارس وجميع نوافذ الغرفة مغلقة ، لكن ضجيج الحياة فى شوارع القاهرة الصاخبة كان يخترق جميع الحجب ويقطع الصمت المخيم على هذه الغرفة بل وقد يطغى على صوت الطبيب أحياناً صوت آلة التنبيه فى سيارة عجلى عطلتها حركة المرور . وكانت هناك منضدة صغيرة وسط الغرفة خلفها كرسى وأمامها آخر وفوقها مصباح كهربائى صغير هو الشىء الوحيد المضىء فى الغرفة أما باقيها فقد خيم عليه الظلام .

عاد الطبيب إلى منضدته وانعكس ضوء المصباح على وجهه وهو يتأهب للجلوس فرأت السيدة أنه يكبرها بأعوام قلائل

فادخل هذا شيئاً من الطمأنينة على نفسها فتقدمت إلى وسط الغرفة وجلست على الكرسى المقابل له فانعكس ضوء المصباح على وجهها يبين للطبيب ما يظهر على هذا الوجه الصغير من انفعالات وتعبيرات وتجهمات .

وقبل أن يسألها الطبيب عما تشكو منه بادرته بقولها :

ـ أظن لا لزوم لاسمى ولا داعى لأن أزور عيادتكم مرة أخرى .. أنا فى حاجة إلى مساعدتك على هذا الأساس . لا أريد أن أغشك فى أى بيان تطلبه ، كيما تستطيع مساعدتى المساعدة التى أرجوها .

ـ لا بأس . . سأبذل كل ما أستطيع من أجلك .

وأخرج الطبيب قلم حبر وتأهب للكتابة : ـ اسمك . . سعدية فخرى . . عمرك ثلاثين سنة . . متزوجة . . مم تشكين ؟

ـ أرق . . لا أكاد أستطيع النوم . . منذ ثلاثة أسابيع وأنا أعانى هذه الحالة . . أنا فى جحيم يادكتور . . تصور ليل الشتاء الفظيع . . لا أكاد أنام فيه ساعة واحدة . . هذا الليل الذى لا يتناهى أبيته صاحية أتقلب فى الفراش . . فى عذاب متواصل . . إن الليلة تمضى علىّ كأنها سنوات . .

ـ هل تسمحين بخلع هذه القبعة . .

عندئذ بدت له نظراتها الغامضة . . نظرات لا تعبر عن شىء

ولعلها زادت أفكاره عنها غموضاً . . كانت لها عينان سوداوان واسعتان بدتا فى وضع فاتن مع ذلك الوجه الأبيض الجميل ، وقد ترك الأرق أثراً باديا على وجهها إذ أكسبه الكثير من التجاعيد الباكرة . . تجاعيد لعلها ما كانت تنتظرها إلا بعد ثلاثين عاماً أخرى . .

لكن رغم هذه النظرة الغامضة فما زال جسدها وروحها يفيضان بحيوية دافقة وشباب متأجج . . وعاد الطبيب يخاطبها :

ـ إذن فأنت لا تستطيعين النوم ؟

ـ أستطيع ؟ ! . . أستطيع لو ذهب عنى الخوف . . إنى أحلم . . وأخاف أحلامى . . والقصة بصراحة . . كنت متزوجة بآخر قبل زوجى الحالى . . ومضى على طلاقى من ذلك الزوج ست سنين قبل أن أتزوج مرة ثانية . . وإنى لسعيدة مع زوجى الحالى . . فهو يحبنى جداً وأنا كذلك أبادله نفس الشعور وما كنت أظن أن هناك ما يثير شكه فى شعورى نحوه أو أن فى تصرفاتى ما يريب . . لكنى بعد عام من الزواج وعلى حين غرة ابتدأت أحلم . . أحلم به . . زوجى الأول .

واعترتها رعدة وازداد وجهها شحوباً على شحوبه وتقلصت عضلات وجهها وبدت كأنها تعانى آلاماً مروعة . . سهر مضنى وأحلام تخيفها . . لكن . . وعاد الطبيب يسألها : ـ ثم ماذا ؟

– أول يوم . . كنت أتحدث وأناضل بيدى ولما تنبهت من حلمى لقيتنى بين يدى زوجى . . كان يوقظنى ويهدىء من روعى . . وسألنى (ماذا رأيت ؟ . . ماذا هناك . . ؟ لابد أنك تناولت عشائك متأخرة ولذلك أصابك هذا الكابوس). ثم ضحك وقال (بالله ماذا رأيت فى هذا الحلم المزعج ؟) فقلت له لا شىء . . لا شىء هى مجرد أضغاث أحلام لم أدرك لها أولا من آخر . .

وفى اليوم الثانى استيقظت على صياحها ووجدت زوجها قد سبقها إلى الاستيقاظ وكان يلاطفها ويهدئها . . لكن هذه المرة لم يزعجها الحلم بقدر خوفها من أن يكون زوجها قد سمع شيئاً مما تحدثت به فى حلمها .

لقد كان إلى جوارها يربت على شعرها ويداعب خدها ويحاول أن يذهب عنها الروع والهلع ، ولم يسألها هذه المرة عما رأت فى نومها لكن هى التى جهدت فى سؤاله عما سمع منها لكنه لم يزد فى اجابته عن أن قال لها (أنها أضغاث أحلام وكلام لا معنى له يا حبيبتى . . هيا واستريحى) .

ولكنها منذ ذلك اليوم وهى تخشى الاستسلام للكرى حتى لاتعاودها الأحلام ، فيزل لسانها بما لا تحب أن يعرفه زوجها . . وإذا صادف وغلبها النوم لحظة استيقظت منزعجة . . ياله من عذاب ؟ لقد تخلصت منه فى الحياة ويريد أن يمتلكها فى

الأحلام . .

لكن كيف يمضى هذا الليل الطويل . . ليل الشتاء المرعب الممل . . ؟ كيف يمضى فى هدوء وهى يقظى فى فراشها . . لابد أن تتقلب فى هذا الفراش من جانب إلى آخر كلما شعرت بالتعب من رقدتها على أحد جانبيها، ولابد أن السهاد يضنيها ويعذبها ولابد أن الزوج سيشعر يوماً ما . وعندما حل ذلك اليوم لم يزد زوجها على أن قال لها عند ما استيقظ على صوت حركتها فى الفراش : « ألا تستطيعين النوم ياحبيبتى ؟ » فأجابته بأنها تحاول . . وأظلمت الدنيا أمام عينيها وتسرب اليأس القاتل إلى نفسها ، وخيل إليها أن كل ما يحيط بها ينذرها بانتقاض هذا العش الهانىء الجديد . فعزمت على أن تستشير فى الأمر طبيباً عله يستطيع معونتها .

وعادت تقول للطبيب : — هذه هى كل القصة كما حدثت . .

— أليس هناك حادث . . حاجة خاصة مرت بك ثم بدأت بعدها هذه الأحلام ؟ ألا تذكرين شيئاً من هذا القبيل ؟ حاولى حاولى أن تتذكرى . .

— جائز . . أجل أجل قبل أول حلم بيوم طالعت فى الأهرام فى صفحة الاجتماعيات خبر ميلاد طفل لزوجى الأول . . لقد تزوج هو أيضاً منذ عامين ولقد سمعت بنبأ زواجه ، ولكنى لم أكن أعلم أنه موجود هنا فى القاهرة . . كان محامياً بالاسكندرية

عندما تزوجنا لكن الاعلان كان يقول أنه وكيل نيابة فى القاهرة . . كنت أمنى النفس بأن أنجب له طفلا لكن هذه الفكرة كان هو يعارضها دائماً ؛ وكان ذلك سبب الفراق بينى وبينه . . لكنه الآن منح هذه الأمنية العزيزة التى حرمنى منها لواحدة أخرى . . لقد كان ذلك شعورى عندما طالعت الخبر . . بكل بساطة .

وهنا كانت تلهث من التعب وكأنها بذلت مجهوداً جباراً فى اعادة هذه القصة على مسامع الطبيب الذى لم يمهلها حتى تهدأ بل فاجأها بقوله : عظيم جداً . . من الجائز أن يكون هذا هو السبب لكن مع أشياء أخرى .

— ماذا تقصد . . ؟

— أعنى أن الأسباب لم تتضح تماماً للآن . . وعادة الأسباب تكون متعددة .

— وفيما تهم الأسباب . . إن ما يهمنى هو متى تتوقف هذه الأحلام ؟

— من المحتمل أنها تتوقف عند زوال أسبابها . .

— إذن . . أنا . . أنا أريد طفلا . . أعز أمانى أن يكون لى ولد . .

لكن الطبيب فى هذه المرة لم يعلق على إجابتها وطلب منها

الملحق به خلف « البرافان » لاجراء الفحص العادى فترددت برهة وقالت معترضة : — لكنى لا أشكو من شىء . . المسألة كلها فى رأسى فى أفكارى .

— هذا صحيح . . ومن المعلوم أن تسعين فى المائة من حالات الأرق نتيجة لاضطرابات نفسية لكن لا مانع البتة من أن نطمئن من ناحية العشرة فى المائة الباقية . . فى عصرنا هذا يقولون أن العقل يتحكم فى الجسم . . لكن فى الواقع لا يوجد حد فاصل لأن الجسم أحياناً أيضاً يتحكم فى العقل . .

وقامت فى تثاقل وأسلمت نفسها لمشيئته يفحص ما شاء من جسمها وأخيراً سألها :

— ألا تحسين بشىء غير عادى مطلقاً ؟

— أبداً . .

— متأكدة . . ؟

— جداً . . ولعلك وجدت الضغط والقلب والصدر . . كل شىء سليم على ما أظن . .

قالتها بلهجة ساخرة جعلته يرمقها بنظرة عاتبة ثم أردف قائلا : — كل شىء حسن على ما يبدو . . هيا بنا لنجلس قليلا . . والآن قصى علىّ أحلامك . . ماذا كنت ترين فيها ؟

— إنها لم تكن أحلاماً منتظمة . . بل أمور متشابكة

مشوشة بدون ترتيب . . هى هذيان كهذيان المحموم .

ـ هذه هى طبيعة الأحلام . . ليس الترتيب من الأهمية بمكان . . فكرى . . حاولى أن تتذكرى بقدر الامكان ما سبق أن رأيته . .

ـ سأحاول . .

ومضت برهة صمت طويلة جعلت خلالها تضغط على جبهتها بيديها كأنها تعتصر منها الكلمات اعتصاراً ، وترسل بنظراتها فى فضاء الغرفة كأنها تحاول رؤية هاتيك الأحلام أو استعادة صورها فى سماء المكان ثم بدأت تتحدث بما ذكرت .

ـ أول حلم . . كنت واقفة خارج بيت بمفردى ليلا . . وكانت السماء تمطر والشارع نظيفاً وأرضه لامعة . .

ـ وماذا كان شكل البيت ؟

ـ بيت صغير مرتفع . . فى ضاحية من الممكن أن تكون مصر الجديدة وله سلم من الخارج . . سلم من الحجارة . . ولقد رأيت نافذة كبيرة تطل على الشارع وينبعث منها نور .

ـ وكيف كان ذلك النور ؟

ـ مثل السهم . . شعاع لامع قوى منعكس على أرض الشارع . . ثم انفتح الباب وظهر منه شعاع نور ثان ، وخرج حسنى زوجى الأول وجلسنا متجاورين على الدرج . . جلسنا

نتحدث . . لا أذكر ماذا قلنا لكننا لم نكن زوجين . . كنا فى الحلم صغيرين . . قبل قراننا بكثير . . ثم سمعنا صوتاً يناديه من داخل البيت فاستأذن قائلا وهو ينصرف : هذه والدتى تنادينى .

وابتسمت ابتسامة نمت عن آلام دفينة عادت بعدها تواصل حديثها : — كانت والدته دائمة الغيرة عليه .. تريد أن تستأثر به كله . . دخل وتركنى وحيدة بالباب .. وهذا هو كل الحلم . . مسألة بسيطة وعادية جدا ، لكنى عاجزة عن أن أصور لك مدى الأثر الفظيع الذى تركه فى نفسى .. كنت شاعرة بأنى وحيدة حزينة وكأنى فقدت شيئاً من وجودى . . شيئاً عزيزاً علىّ .. أو أن العالم قد انفض عنى .. واستمر أثر هذا الحلم على ساعات طويلة من النهار غالبنى فيها الحزن والألم .

— العالم انفض عنى .. عجيبة .. هل تستطيعين إعطائى فكرة عن هذا الحلم .. كان حلما طويلا أم قصيراً ؟ وجو الحلم .. نوعه ؟

— نعم يا سيدى .. كان كل شىء ضخماً .. الشارع واسع وكبير والسماء واضحة والمنزل كان بادى العظمة والحلم على ما يخيل إلىّ استغرق وقتاً طويلا ..

— عظيم جداً والحلم التالى ؟

— نعم .. الحلم الثانى كان أعجب من الأول . . رأيت كما لو كنت وحسنى فى نزهة فى حديقة كبيرة . . مثل (الأورمان)

وكنا نستبق عدوا .. ثم وجدت نفسى فجأة فى الكلية .. كلية الحقوق وكان زميلى بها .. وكنا فى فناء المدرسة ومعنا بعض الطلبة نتكلم ونضحك .. وبعد ذلك وجدتنا معا بمفردنا أمام منزل ..

ـــ وماذا كان شكل المنزل ؟

ـــ صغير .. (كفيلا) .. لكنى لا أستطيع أن أذكر بالدقة أوصافه .. إنما كان أبيض اللون .. ثم فتح الباب وخرجت خالتى .. خالتى هذه سيدة عجوز كانت تحب التدخل كثيراً فى كل شىء وكانت تعارض فى زواجى الأول لأنها كانت تريدنى لإبنها ولذلك لم أكن استلطفها .. والعجيب أن حسنى كان يكرهها فعلا .. لكنى تلفت فوجدته قد أسرع إليها وسلم عليها بشوق ودخلا البيت معاً وتركانى وحيدة بالباب .. صرخت .. كنت أريد منعه .. قلت له : « انتظر .. انتظر » لكنى استيقظت وأنا أصيح دون مجيب ..

ـــ والحلم الثالث ؟

ـــ أنه الأخير أيضاً .. أحببت أن أنام اليوم صباحا بعض الوقت لكنى قمت منزعجة من نومى .. كان حلما طويلا لكنى لا أكاد أذكر منه غير آخره .. كنت أسير وحيدة فى نهاية شارع .. طريق خلوى ينتهى إلى الصحراء .. والوقت كان نهاراً

ولو أن الضوء كان عجيباً . . فلقيت حسنى راكباً دراجة وقد ارتدى ملابس « التنس » فلما رآنى ترجل ..

— هل وقف إلى جوارك ؟

— لا . . وقف وسط الطريق وقال لى أنه ينوى التنزه قليلا وطلب منى أن أرافقه ولم يكن لدىّ مانع من ذلك لكنه ركب دراجته وانطلق بها ، حاولت أن أناديه لينتظرنى لكن صوتى لم ينطلق . . وهذا هو كل شىء .. حوادث غريبة غير منتظمة لكن الشعور العجيب الذى كنت أحسه عقب كل حلم .. شعور بالوحشة المقبضة .. بحنينى لحسنى .. ومن الجائز إنى كنت أناديه فى نومى .. ومن الجائز أيضاً أن زوجى قد سمعنى وظن إنى أريد أن أرجع لغريمه .

— وهل أنت حقاً لا تريدين ذلك ؟

— أبداً .. هذه مسألة قد انتهت من سنين

— لكنك كنت تحبينه ؟

أطرقت هنيهة لكلمة الطبيب وتشاغلت بالنظر إلى يديها المتقلصتين وهى تغالب ما يراود خيالها من ذكريات زوجها الأول ثم قالت دون أن ترفع بصرها : لا أدرى .. من الجائز .

— أستطيع أن أفهم أنك كنت موفقة إلى حد ما فى زواجك الأول .. كنت سعيدة ؟

ـ كانت لنا أيام سعيدة
ـ كم من الأعوام عشتما معاً ؟
ـ ثلاث سنوات
ـ وزوجك الثانى . . ألم يخيب آمالك فى شىء ؟ أعنى هل حققت كل آمالك بهذا الزواج ؟
ـ الزواج الحالى أكثر مما كنت أحلم به . . لقد حقق لى كل ما كنت أتمنى ..
ـ لكن ليس عندك أبناء ؟
ـ لا .. لم أنجب بعد

ومضت فترة طويلة من الصمت استغرق خلالها الطبيب فى تفكيره ، بينما شرد ذهنها فى خيالاته ولعلها كانت تفكر فيما ينتظرها من عذاب لا يتناهى فى ليلها الطويل القاسى .. هذا الليل الذى لم ينتصف بعد بل لم ينقض ثلثه الأول . . كيف ستقضى هذه الليلة مسهدة كما قضت ما سبقها من ليال مؤرقة تعذبها الأفكار وترعبها الأحلام .. هل سيكتب لها الخلاص من هذه الآلام ؟ هل كتب لهذا العش السعيد أن ينقض على رأسها ؟ هل كتب عليها الشقاء سرمداً ؟

وأخرجها من ذهولها صوت الطبيب وقد عاد يحدثها :
ـ تدركين طبعاً إنى لست أخصائياً نفسانياً ، وأن على

عن الأحلام محدود لكن من الممكن أن أوصى بك طبيباً من أصدقائى الأخصائيين فى مثل مرضك .

— أترى من الضرورى ذلك ؟ وهل من المحتم أن أعيد سرد كل ما قلته لك لشخص آخر ؟ ألا تستطيع أن تمد لى يد المعونة فى محنتى ؟

— أحاول ..

— أرجوك .. أرجوك . أنا فى حاجة إلى نجدة سريعة .. لا أستطيع أن أعود إلى بيتى بحالتى هذه .. بهذا الشعور المستولى على .

— اهدئى قليلا أرجوك . ولتصغى إلىّ جيداً .. الأحلام .. أنا لا أعرف تأويلها .. أعنى لا أعرف إذا مارأى الإنسان مشاجرة فى رؤيا ماذا يحدث له فى اليقظة .. إنما سأحاول أن أفسر لك بعض الاحتمالات فى أحلامك .. الأحلام أمر من اثنين .. رغبات أو مخاوف ، والخوف طبعاً رغبة عكسية وهذه الرغبات تبدو فى الأحلام على شكل صورة رمزية ، فمثلا الإنسان قد يتمنى لو حصل على أشياء محظورة . وقد يبلغ قبح الرغبة إلى درجة أن تأبى النفس الاعتراف بوجودها أصلا .. ورغبات الإنسان متعددة ومعقدة ، وهذه الرغبات مجتمعة تخرج لنا هذه الرموز التى يتكون منها الحلم .. فأنت مثلا فى كل

أحلامك التى ذكرتها كنت تحلمين بزوجة حسنى الجديدة ..

ـــ وكيف هذا وأنا لم أرها قط .. هذا غير معقول .

ـــ خالتك العجوز التى تكرهينها والتى نادت عليه وسلم هو عليها بشوق .

ـــ لكن زوجة حسنى ليست عجوزا بل هى تصغرنى سنا .

ـــ لكن لا تنسى أنك تتمنين لو كانت عجوزا شمطاء دميمة الخلقة ولو فى عقلك الباطن .. ولو فى نفسك دون أن تبدى شيئاً من هذه الرغبة أو الأمنية .

ـــ ولماذا ؟ حسنى حقاً أساءنى منذ زمن بعيد ومن الجائز إنى رددت عليه اساءته لكن ذلك لا يجعلنى أتمنى له التعاسة أبداً

ـــ فى واقع الحياة عقلك الواعى لا يسمح لمثل هذه الأفكار بالظهور ، لكن الإنسان البدائى الهمجى المستقر فى نفسك هذه هى طريقة انتقامه . . لقد كنت تحلمين بزوجته لكنك كنت ترينها فى صور رمزية .. رموز لزوجة حسنى

ـــ جائز .. جائز ..

ولقد حدست أنت سبب هذه الأحلام تقريباً . . قلت أن الأحلام بدأت بعد أن قرأت فى الأهرام أن حسنى أنجب غلاما .. فأنت فى أحلامك انتقمت لنفسك بجعل زوجته عجوزا دميمة وهو دائماً هائم على وجهه فى الطرقات ..

— من الجائز ، لكن هذا سبب بينما أنت تقول بوجود أسباب أخرى .

— صحيح . . سبب آخر . . من الجائز أنك تفكرين فى الانتقام من زوجك الحالى .

— ماذا تقصد بذلك يا سيدى ؟ هذا من غير المعقول قطعاً .. بل العكس هو الصحيح ، ولا أكذبك إذا قلت لك إنى أحب زوجى

— كما قلت لك من قبل . . الطبيب النفسانى سوف ينبئك بأن شدة الضيق الذى تعانيه يحدث هذا ..

— أرجوك وضح لى قولك

— قلت منذ لحظة أن زوجك الحالى قد حقق لك كل ما كنت تتمنين ..

— كل أمانى فى العالم بعد هذه السن ..

— ما عدا طفل ..

تغير لونها عند هذه الكلمة وحال لون وجهها وامتقع حتى ليحاكى وجوه الموتى ، وساد الصمت الرهيب فى جو المكان للحظة . كانت تغالب فيها عواطفها وتحاول جاهدة أن تكبح جماح دموعها ، وعندما تمكنت من الكلام قالت له : وهل تعتقد أن مثل هذا السبب يدعونى للتفكير فى الانتقام من شخص أحبه ؟

ـ الانتقام والحب .. معانى متقاربة .. الرغبة فى إنجاب طفل .. فى حيازة طفل عميقة فى نفس المرأة ، وقديمة من آلاف السنين ، ولأحقاب متعاقبة كان العقم يعتبر عقوبة من الآلهة لذنوب المرأة .. أننا لا نتحول عن هذه البدائيات والأفكار الهمجية بالعلم والمنطق الحديث إلا ظاهريا لأن العلم حديث بالنسبة لهذه العادات الراسخة ..

ـ وإذا عرفنا أسباب أحلامى فما هى الخطوة التالية ؟ أو العلاج الذى سيريحنى من آلامى ؟

ـ العلاج ينقسم إلى قسمين .. القسم الأول أن تذهبى لرؤية حسنى فى أول فرصة ..

ـ إيه .. ماذا تقول ؟

ـ افعلى فى الواقع ما كنت تحاولينه فى الأحلام ..

ـ هذا غير ممكن .. ست سنين لم أحاول أن أراه مرة .

ـ إلا فى الحلم .

ـ لا يمكن أن ألقاه دون أن أخبر زوجى .

ـ لا تستطيعين .

ـ ألا تقدر ذلك .. ألا تتصور المانع ؟

ـ من الجائز أنك تفضلين ازدياد هذه الأحلام .. أو أنك تفضلين استعباد هذه الأحلام وأن تظلى مقيدة بأوهام .

— ليس الأمر كذلك .. حسنى عندما تخلصت من سطوته فى الواقع أصبح اليوم يسيطر علىّ فى أحلامى ويتحكم فى حياتى بخياله . . كيف أتمكن من التخلص من طغيانه ؟ انى أريد ذلك ولا شك . . لكنى لا أعرف أين يقيم . .

— الاعلان . . اعلان الأهرام الذى فى خريطتك . .

وفى حركة آلية أخرجت قصاصة ورق من حقيبتها أخذت تعيد تلاوتها بعينيها ثم قالت : —

— لكنه عنوان عمله فقط .

— من الممكن طلبه تليفونياً .

— لكن ما جدوى نكأ جروح قديمة التأمت ؟

— أحياناً يرى الطبيب ضرورة مثل هذه العملية . . أما القسم الثانى فسأكتبه لك .

— تذكرة دواء . . فى قارورة حمراء أم سوداء ؟

— حالتك يا سيدتى حالة نفسية وقد قلت لك نصيحتى فى علاجها . . أما هذه فبسيطة جداً . .

— وهذا الدواء سأتناوله قبل الأكل أم بعده ؟

— بعد أن ترى زوجك الأول .

— لطيفة جداً . لو يكتب ذلك على زجاجة الدواء . . سعدت مساء ياسيدى .

وتناولت الورقة وألقت بها فى خريطتها دون أن تنظر ما فيها وانصرفت بخطى متثاقلة لفرط ما تحس من أعياء ونصب وفى أصيل اليوم التالى التقت بحسنى فى حديقة الشاى حيث اعتادا أن يلتقيا عند ما كانا طالبين ثم خطيبين .

وأول ما لاحظت من تغيير عليه هو الشيب الذى وخط رأسه كما بدا عليه التقدم فى السن غير أن هذا لم يبدل من مرحه وابتسامته الدائمة لكنهما ما أن جلسا وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث وجاء ذكر طفله دهشت لحديثه عن الطفل كما يتحدث الآباء ولأصطحابه فى جيبه مجموعة من صوره أخرجها وأخذ يتأملها فى اعجاب . . دهشت أن حسنى الذى كان يعارض فى انجاب طفل يتحدث هذا الحديث ويبدى هذا الحنان والعطف والاعجاب بالأطفال .

حقاً لشد ما تغير حسنى .. إنه ليس حسنى الشاب اليافع الذى عرفته والذى كان نزاملها فى الكلية ، لا ولا المحامى المغامر الذى كان زوجها .. هاتان هما الصورتان اللتان ظلتا تراودان خيالها فى الأحلام .. أما هذا الذى جلس أمامها فشخص آخر غير حسنى الذى أحبته .. إنه موظف ركن إلى حياة الدعة والاطمئنان ورب أسرة وعائل أطفال . .

لعلها لم تكن تدرك قبل أن تذهب للقائه مدى تأثير الزمن

على الانسان وعلى تفكيره لكنها الآن أدركت أنها أيضاً تغيرت. وتقدمت بها السن ولم تعد تلك الطفلة التى كانت تلتقى بحسنى .

وعندما انصرفت قاصدة بيتها شعرت أنها ودعته الوداع الأخير وأنها فارقته حقاً إلى غير أوبة .. وعلى درج المنزل تذكرت تلك الورقة .. تذكرة الدواء التى ألقتها فى خريطتها فأسرعت بالبحث عنها وأخرجتها وأخذت تطالعها على الضوء المنبعث من زجاج الباب فوجدت بها « نصيحتى لك أن تستشيرى طبيبك الخاص لأن الأحلام المزعجة تكون فى بعض الأحيان أول أعراض الحمل » .

آمـــل ...

ما أسعد الطير إذ يضمه العش
مع أليفه عندما يأتى المساء
فيغمض عينيه وقد اطمأن قلبه
إلى سعادة الحب وأمن الوفاء
فمتى يا حبيبى تجمعنا وسادة الحب
بعيداً عن أعين الرقباء ؟
وتصعد بنا أجنحة السعادة
فى سماء الحب والهنـاء ؟
وترفرف فوق مضجعنـا
أحلام الأمـــل والرجاء

obeikandl.com

العبيد

كانت الساعة الثانية بعد منتصف ليل أحد أيام فبراير العاصفه من عام ١٩٤٠ عندما طرق باب البيت فى عنف فهبت سعدية مذعورة مع من فى البيت الصغير الذى لم يكن يتجاوز غرفتين متداخلتين لا تعرفان النور من مساكن الدخيلة الحقيرة ، الأولى منهما يضيئها الباب المفضى إلى الطريق إذا فتح وفيها يطهون الطعام ويغسلون الثياب ويتناولون أكلاتهم ويستقبلون أضيافهم ، أما الثانية الداخلية فكانت لنومهم جميعاً يحتل كل منهم أحد أركانها الأربعة .

لكن سعدية عادت تخفى رأسها تحت الغطاء لهول ما رأت .. لقد اندفع الجنود إلى داخل المنزل يقلبون « الحلل » ويعيثون فى المكان فساداً وكأنهم يثأرون لثأر قديم ثم قبضوا على شقيقها على وأوسعوه ضرباً وركلا بالأرجل وصفعاً بالأكف وهم يقتادونه أمامهم .

وانطلق الوالد الشيخ فى أثر ابنه الذى اقتادوه إلى السجن .. يسأل الناس فى لهفة عن جناية ولده .. لقد سأل الجنود فلم يجيبوه .. سأل الضابط فنهره .. سأل كل من لقيه فى الطريق

أو بالقرب من السجن لكن أحداً لم يستطع أن يدله على شيء فتوجه الوالد الملهوف ، وقد جارت الدموع فى عينيه ، إلى جمرك الاسكندرية حيث كان يعمل ولده ساعياً ليسأل عن السر فى القبض عليه وحرمان الأسرة من عائلها الوحيد ..

إن الرجل يعلم أن الحرب التى نشبت فى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ كانت السبب فى حرمانه من عمله بالميناء بعد أن قل ورود السفن الى الاسكندرية بسبب اخطار الحرب فى البحر الأبيض المتوسط واستغناء مقاول التفريغ عن كثير من عماله الذين أصبح لا عمل لهم لكن ما خطب ابنه موظف الحكومة .؟ صاحب الوظيفة الأميرية ؟ لعله سرق ؟ لعله نهب ؟ لعله ارتكب جريمة لا تغتفر ؟

وعاد الشيخ مع المساء منكس الرأس متجهم الوجه لا يكاد يقوى على المشى وما أن بلغ باب البيت حتى ألقى بجسده المرهق على الأرض وأسند ظهره الى الباب وأغرق فى صمت عميق ..

جلست زوجه أمامه ترقبه فى رهبة وخشوع مشفقة من هول ما أطبق عليه شفتيه من أنباء وانزوت سعدية فى أحد أركان الحجرة مرهفة السمع لما عسى أن ينطق به أبوها وأخيراً بعد أن ثقلت وطأة الصمت على الجميع وتقطعت نياط القلوب لتلك الزفرة العميقة التى كان يرسلها الوالد المكلوم بين لحظة

وأخرى اقتربت زوجه منه تسأله : « ألم يئن الوقت لنأكل لقمة ؟ » فزفر الشيخ زفرة حرى ولم يجب وعادت المرأة تقول :

ـ كله مقدر ومكتوب ..

ـ ياليتنى أعرف إلام النهاية ؟

ـ وكيف ؟

ـ ان ابنى مظلوم

ـ وهل تأخذ الحكومة مظلوما ..؟

ـ إنها لم تعد حكومتنا ..

ـ انى لا أكاد أفهم شيئاً ..

ـ لقد كان على فى الأيام الأخيرة منضما لجمعية وطنية وقد طلب الانجليز من حكومتنا القبض على أعضاء هذه الجمعية ووضعهم فى السجون إلى أن تنتهى الحرب لأنها تخشى منهم على سلامة جيوشها .. فمتى تنتهى الحرب ؟ الله وحده يعلم .

ـ ربنا كريم يا أبا على .

ـ لو أن الأمر اقتصر على نهاية الحرب لوجد المرء العزاء .

ـ وماذا هناك أيضاً ؟

ـ يقول الناس أن حياة المرء غير مضمونة فى هذه المعتقلات .. أعنى قد يقتله الجنود ولا دية له .. وقد يعذب

وبهان ولا يملك رد عدوان .

وهنا صرخت المرأة وأخذت تصك خديها وهى تصيح :

« ولداه .. ولداه .. واثكلاه »

وتحركت سعدية من مكانها وهى تبكى والتصقت بأمها وتشبثت بأطراف ثوبها وهى تدعوها للكف عن البكاء ..

وبدأت الحياة تقسو على الأسرة البائسة بعد أن نفد ما بقى معها من دريهمات واضطر الشيخ إلى أن يعود إلى مسقط رأسه فى أسيوط ليبحث لنفسه عن عمل وترك زوجه وابنته لرحمة الأقدار فى الاسكندرية التى سرعان ما نبت بهما بعد أن قبض الجيران أيديهم عنهما وأصبحوا يستثقلون طلباتهما الحقيرة وأصبحت سعدية ذات يوم وقد عضها الجوع بنابه فانطلقت تسعى وقد حارت الدموع فى عينيها بين الشوارع حتى ألفت نفسها فى الجمرك حيث كان يعمل أخوها وما رآها شيخ السعاة حتى حملها بين يديه ونفحها بقطعة من ذات الخمسة قروش وكان فى تلك اللحظة الباشكاتب يلج الباب فما أن رآه حتى سأله :

ـ من هذه ؟ أهى ابنتك ؟

ـ لا .. انها أخت على الساعى المعتقل .

ـ مسكينة .. ماذا فعل الله بها وبأهلها ؟

... أبوها استغنى المقاول عنه . لا شك فى أنهم جياع .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأغمد الباشكاتب يده فى جيبه وأخرج بضعة قروش أعطاها للطفلة التى عادت تعدو حتى بلغت الدار ودست النقود فى يد أمها . . .

وتعودت سعدية أن تذهب من وقت لآخر إلى جمرك الاسكندرية فيجود عليها زملاء أخيها ببعض النقود أو بعض الطعام الذى تحمله إلى أمها لتشركها فيه غير أن أمها كانت دائماً تزجرها على فعلتها هذه وتنهاها عن سؤال الناس لكن سعدية كانت تحس من صوت أمها انها تضمر غير ما تظهر وإلا فلماذا تتغاضى عنها صباح كل يوم عند ما تحمل ذلك الكيس القديم لتتوجه به إلى الميناء ولا تنهاها إلا عقب عودتها بحصيلة اليوم ؟

لكن هذه الحصيلة أخذت تتناقص وبدأت المرأة تبيع أثاث بيتها القطعة بعد الأخرى لتشترى الضرورى من القوت ومع ذلك فقد عجزت عن سداد إيجار المنزل شهرين متتاليين وذات صباح حضر صاحب البيت فألقى بها هى وابنتها إلى عرض الطريق دون أن يسمح لها بشىء مما بقى من أثاث .

لقد كانت سعدية تسأل أمها والدموع تنهمر على خديها : « كيف يجرؤ هذا الرجل على اخراجها وهى مريضة لا تقوى على المشى ؟ كيف .. أليس من حقها أن تبقى حتى تبرأ فتدفع له

حقه ؟ .. لكن الأم التى اعتمدت على كتف طفلتها لم تكن تدرى ما تقول ولم تكن تملك لابنتها سوى ذلك الفيض المنهمر من الدموع على وجنتيها المتغضنتين قبل الأوان ..

وأيقنت المرأة ألا مكان لها بالاسكندرية فشرعت فى رحلتها على الأقدام لتلحق بزوجها فى أسيوط .. تبيت إذا ما جن الليل على قارعة الطريق أو فى رحاب منزل من منازل العمد أو الفلاحين فى القرى حتى بلغت بلدتها فوجدت زوجها قد وفق إلى عمل وبعث إليها عدة رسائل ولبعض أقاربه بالاسكندرية لتلحق به دون أن يتلقى رداً وكان على وشك السفر إليها ليتبين جلية الأمر .

* * *

أظلت السنة الثانية من الحرب العالمية الأخيرة العالم وهو يعانى مجاعة مروعة فى مواد الغذاء ولا سيما الخبز .. الخبز الذى خلط بالشعير والذرة والأرز والتراب والحصى فخرج للناس خليطاً تعافه النفس لكن الجوع كان يجعلهم يقتتلون للحصول على هـــذا الرغيف القذر الذى تأنف منه نفوس السائمة ويتخاطفونه من المخابز ومن فوق رؤوس الباعة فى الطرقات وتسيل فى سبيله الدماء أنهاراً .. أجل ، حدث هذا عام ١٩٤١ الذى لن تنساه مصر ولن ينساه المصريون .

وكانت سعدية فى ذلك الوقت لم تتجاوز السابعة من عمرها

تعيش مع والديها الشيخين فى كوخ حقير من بوص الذرة على النيل فى مدينة أسيوط لقاء أجر بسيط يدفعانه لأحد كبار الأثرياء الذى أقاموا كوخهم على حافة حقله فيغنم منهم الأجر وحراسة الحقل بلا مقابل .

وكان أبوها قد فصل منذ أسابيع قليلة من عمله كخفير ليلى بأحد تلك الشركات بعد أن تعذر عليه مواصلة السهر ليلتين متعاقبتين فقصر فى المرور بساعة الحراسة والتأشير عليها من مفاتيحها المعلقة فى أرجاء الشركة وذلك نتيجة ارهاق الجوع وسوء التغذية التى طال مداها .

حاول أبوها وأمها عبثاً أن يلحقاها كخادم فى أحد قصور السادة الموسرين أو فى أحد منازل انصاف السادة من الموظفين وأوساط الناس .. كان الجميع يرفضون قبولها لصغر سنها .

وذات مساء كانت فى مخدعها تحاول النوم والجوع يدفع الكرى عن عينيها فوصل إلى أذنيها صوت حديث خافت بين والديها اللذين جلسا على باب الكوخ فأخذت تتسلى باستراق السمع فوجدت أبوها يقول :

— هل ذهبت إلى المستشفى ؟

— أجل ..

— وماذا قال لك الطبيب ؟

ـ قال لى ان الدوسنطاريا مزمنة فى أمعائى وعلى أن أمتنع عن الأكل امتناعاً تاماً وأكتفى بعصير البرتقال والليمون بالسكر أو ماء الفول بغير زيت .

ـ وأين لنا بالبرتقال أو السكر ؟

ـ أجل . . السكر ؟ لقد اختفى من البلدة ويزعمون أن الأقة تباع سراً بأربعين قرشاً التى كنا نشتريها بخمسة قروش .

ـ واها لهم اللصوص ؟ ألا يحسون بآلام الناس ؟ ألا يحق للفقير أن يعيش فى هذه الدنيا ؟

ـ لا تحزن يا أبا على أن الله معنا .

وفى الصباح الباكر استيقظت سعدية من نومها وقد اعتزمت فى نفسها أمراً فانفلتت مع كلبها الأمين سبع قبل أن يستيقظ والداها ويممت وجهها نحو الشمال وأخذت تغذ السير حتى بلغت أسوار قصر « مجدى باشا محب » وهو أشبه بقلعة حصينة تطل على النيل وقد أحاطت بها حديقة غناء تبلغ مساحتها أكثر من سبعين فدانا قد غرست بكل أنواع الفاكهة التى تخطر على قلب بشر فى أى بقعة من بقاع العالم . . ففيها عدا المحصولات المحلية التفاح والكمثرى والفستق والقسطل والصنوبر والسفرجل وغيرها ويحيط بالقصر والحديقة سور منيع .

جلست سعدية على الأرض وإلى جوارها سكن كلبها ثم

أخذت تتطلع إلى أشجار البرتقال المحيطة بالحديقة وقد بدأت ثمارها تجف بعد أن أدبر الشتاء ومر بالطفلة رجل فى أسمال بالية لمحته وهو يخرج من أحد أبواب القصر فأدركت أنه لابد أن يكون عاملا أو خفيراً من خفر الباشا فلما أن حاذاها سألته :

— قل لى يا أبتاه . . لماذا يتركون هذا البرتقال يجف على أغصانه ؟

— يا بنيتى ، الباشا عنده برتقال كثير جداً . وهو فى غنى عن هذا البرتقال .

— لكن ربما هناك أناس فى حاجة إليه .

— هذا عيب يابنيتى . . أنهم لا يقطعونه لأنه يزين أسوار الحديقة والباشا ليس فى حاجة إليه .

وتركها الرجل وانصرف وهو يبتسم ابتسامة المنكر لما سمع أو المستخف بتفكيرها الطفل الذى لم يرتفع بعد لمستوى عقلية الباشا وقومه الذين يجب أن يظهروا بالمظهر اللائق بهم من الغنى والاستغناء . . بل والاستعلاء على الناس ولو بحرمان فقيرهم من فضل أموالهم وخيراتهم .

لكن سعدية هبت واقفة بعد أن تركها الرجل وقد تذكرت أمها . . أمها المريضة الجوعى التى فى مسيس الحاجة لعصير أمثال هذه البرتقالات لتتغذى به بعد أن تعذر عليهم الحصول على

السكر وأصبحت حياتهم جميعاً جحيماً من الحرمان والجوع يتلظون بناره ويستنزف حياتهم قطرة قطرة دون هوادة ولا رحمة .

أخذت سعدية تجوب حول السور لتجد منه ثغرة تنفذ منها وبعد جولات طويلة وجدت قطعة متهدمة من الحائط تسلقتها ثم انحشرت من بين أعمدة الحديد إلى داخل الحديقة وألقت بنفسها على الأرض وكان كلبها وراءها أسرع منها .

جلست على الأرض قليلا ريثما تستريح وقد بهرها منظر هذه الجنة التى ألفت نفسها فيها فجأة وسبح بها الخيال فى التفاح الجميل الذى ناءت بحمله الأشجار وتلك الثمار المتعددة التى لا تدرى ما هى .. أن أمها تحلم ببعض برتقالات لا أكثر بعد أن قسا عليها الجوع أياما طوالا وها هى البرتقالات الآن بين يديها . .

وهبت سعدية واقفة وكأنما قد انتزعت من حلم جميل وسارعت إلى العمل لتفثأ حر هذا الجوع الذى يعصر أمعاءها وأمعاء والديها فأخذت تسير فى حذر باحثة عن شجرة قصير أو شجرة تستطيع تسلقها وعلى حين غرة دوى بالقرب منها صوت طلق نارى وانفلت الكلب من جوارها عدوا وعاد إليها فى مثل لمح البصر وألقى أمامها بيمامة سمينة فحملتها بين يديها غير مصدقة وعلت وجهها ابتسامة الظفر والفرح .

ولكن سرعان ما برز أمامها من بين الأشجار رجل فى الخامسة والأربعين من عمره أنيق الثياب، يرتدى سراويل الركوب . . فكان فى لباسه قريب الشبه بأعدائها الجنود . . الجنود الذين ينتزعون العيش من الناس ليقتسموه بينهم ويهاجمون المخابز ومحال البقالة ويحملون منها كل ما يريدون ويتركون الناس جوعى لا يجدون ما يقتاتون به . . أنه منهم ولا شك ، وأنه سينتزع منها اليمامة ... وها هى بندقيته ما زال ينبعث منها دخان الجرائم المروعة التى يقترفها هو وأمثاله .

لقد همت بالجرى لكنه صاح بها (قفى فى مكانك) فوقفت حتى واجهها وقال :

— هذه الحمامة ملكى

— بل هى لى

— كيف دخلت إلى هنا ؟

— من السور .

— هل به فجوة ؟

— لا إنما تسلقت عليه .

ووقف الرجل يتفحصها ليقدر عمرها وكأنه يفكر فى حكم القانون مع هذه الطفلة اللعينة التى اعتدت على أملاكه بل واستهانت بحماه . ثم أمرها أن تتبعه وسارا خلال ممرات الحديقة حتى ظهر أمامهم القصر المنيف فرأى الرجل زوجته نعمات هانم وإبنه شوكت وابنته سوزان على أهبة الخروج فما أن لمحوه حتى توقفوا جميعاً عن المسير وصاحت نعمات هانم :

— ما هذا يا مجدى ؟

— سارقة .

— لا تكن مهذارا .

— إنها إحدى أطفال الفلاحين ضبطتها داخل الحديقة .

— لا يمكن أن تكون سارقة . . إنها جميلة ولطيفة . ما اسمك يا بنيتى ؟

لم تكن سعدية منتبهة لما يدور حولها من حديث بل كانت

قد تعلقت عيناها بسوزان تتأمل جمالها وملابسها الأنيقة وقبعتها الحريرية الصفراء التى تغطى شعرها الذهبى وضفيرتيها اللتين تدلتا على كتفيها . . لقد كانت تفكر كيف دخلت هذه الطفلة وهى فى الثامنة من عمرها مثلها تقريباً . . إلى هذا المكان . . لا يعقل أن تكون قد تسللت السور ... لكن سؤال السيدة نبهها قليلا من خيالاتها فقالت :

— أنا سعدية وهذا كلى سبع .

— كم عمرك يا سعدية ؟

— سبع سنوات

— هل سمعت يا مجدى أنها طفلة صغيرة ... ويبدو أن الجوع سيقتلها ... سآمر لك بوجبة كبيرة من الطعام ... ألا يسرك ذلك يا سعدية ؟

— كل السرور

وهنا صاح الباشا بزوجته : « نعمات هانم . . إن شفقتك الرعناء . . » ولم يتم عبارته إذ قاطعته سعدية وهى تشير إلى سوزان قائلة :

— لقد رأيتها من قبل . . كانت على شاطىء جزيرة الوليدية . . وكانت أمها معها . .

— أجل لقد كنت أنا

ـ كانت تلبس سراويل قصيرة وأخذت أرقبهما من مكان خفي

ـ هل تحبين لباساً للبحر مثله ؟

ـ كلا أنه لا يلائمني

ـ إذن هيا الآن لتستحمي أنت وكلبك ولتتناولا الطعام .

وما أن فرغت سعدية من طعامها حتى تذكرت اليمامة وأمها الجائعة التي قضت ثلاثة أشهر أو أزيد وهي تحلم بأكلة لذيذة كهذه فذهبت إلى الهانم تتوسل إليها أن تذهب باليمامة وببعض البرتقال إلى أمها لأنها في مثل حالها من الجوع على أن تعود فورا لاستلام عملها كخادمة خاصة لسوزان كما أخبروها لكن الباشا رفض ذلك رفضاً باتاً قائلا : « لن أسمح لها باستحضار المزيد من الأقذار إلى بيتي » .

بعد قليل ذهبت نعمات لترى الغرفة التي أمرت بإعدادها للخادم الجديدة فوجدت سعدية قد استلقت على الفراش تبكي وتنشج فرق لها قلبها وربتت على ظهرها ووعدتها بأن ترسل خادما في الخفاء ببعض الطعام إلى أمها وليخبرها بأنها التحقت بخدمة الباشا .

كان عمل سعدية الجديد هو مصاحبة سوزان واللعب معها وقد أحبتها سوزان حباً جماً بادلتها إياه فكانت إحداهما لا تطيق

فراق الأخرى .

ولذا كانت سعدية تحضر دروس سوزان التى كان يلقنها إياها مدرس خاص وقد شغفت بهذه الدروس وشاركت سوزان فى استذكارها كما تعلمت منها الأبجدية وبعض مبادىء القراءة حتى لا تتخلف عنها فى شىء مما تتعلم

وكانت هناك مربية انجليزية تدعى مانسون تلقن سوزان قواعد الاتيكيت وآداب المجتمع حتى تكون سيدة صالون محترم من صالونات الأرستوقراطية المرموقة وقد تعلمت سعدية منها الشىء الكثير كما شغفت مانسون بالطفلة وأحبتها لما لمست منها رغبتها العجيبة فى أن تصبح سيدة كهاتيك اللائى تتحدث عنهن نعمات هانم وعن سلوكهن وما يجب على مثيلاتهن .

مرت السنون تترى وسعدية تعيش فى الجناح المخصص للخدم من القصر لا تبرحه إلا للقاء سوزان فى الجناح المخصص لها ولا تدرى من أمر القصر شيئاً أكثر من ذلك لأن باقى أنحائه كانت محرّمة عليها بأمر الباشا لا سيما القسم الغربى المخصص له وحده دون سواه ولا يجرؤ على الدنوّ منه سوى خدمه الخصوصيين وكانت سعدية تعلم أن بذلك القسم مكتبة ضخمة سمعت عنها الشىء الكثير من سوزان وأحيانا من مانسون حتى أصبحت حلمها الوحيد وأصبح أملها السعيد أن تغوص فى كنوز

هذه المكتبة وتستوعب ما فيها من علم وحكمة لتصبح إحدى شهيرات النساء اللاتى تسمع عنهن من مدرس سوزان ومن الصحف .

لقد بدأت سعدية بعد أن شارفت الخامسة عشرة من عمرها تحس بوجودها فى الحياة وبأن لها شخصية محببة كما بدأت تتعرف مواضع الجمال من جسمها ومواضع الفتنة فى هذا التكوين الجميل وأخذت أحلام العذارى الجميلة تراود مخيلتها وترسم لها صورا جميلة عن عالم الغد وآمال السعادة التى تنتظر جمالها ولقد تركزت هذه الأحلام فى المكتبة وما حوته من علم سيرفعها إلى قمة المجد والسعادة .

إلى أن كان ذات مساء علمت فيه بسفر سيدها إلى القاهرة فتجرأت على اقتحام جناح الباشا بعد تردد طويل ، واستعادة متكررة لما حدثوها عنه من أفانين القصص ، وأنباء قسوته وبأسه الذى يستمده من شخصيته الإقطاعية .. لكن سعدية جازفت بكل شىء وأخذت تطرق أبواب ذلك الجناح الغربى فى حذر الواحد فى إثر الآخر حتى فتحت آخر الأبواب وكانت المكتبة من ورائه فطالعتها المجلدات العديدة والكتب فى كل مكان ومن مختلف الأحجام والألوان وفى مختلف الأغلفة من جلد وورق وقماش .

وقفت تتأمل هذا الكنز الذى عثرت عليه أخيراً وأخذت تفكر فى كيفية استغلاله فهداها تفكيرها إلى أن خير وسيلة هى أن تبدأ بأول كتاب على أول رف عن يمين الباب حتى تفرغ مما على الرف فتنتقل إلى سواه وهكذا حتى تأتى على ما فى المكتبة جميعاً وشرعت فى تنفيذ خطتها فجلست وقد تناولت الكتاب الأول لتقرأه .

ومنذ ذلك اليوم وهى تتبع أخبار الباشا كيما تستطيع الذهاب إلى المكتبة فى أمان حتى خيل إليها بمرور الأيام أن هذه المكتبة مهجورة لا يقربها أحد فكانت فى الأيام التى تعلم بغياب الباشا فيها لمدة طويلة تعتبرها ملكا خالصا لها فتستعمل الكراسى المريحة أو تضطجع على بعض الوسائد والطنافس ، وفى مثل هذا الوضع ضبطها شوكت ذات يوم وهى مستغرقة فى القراءة حتى أنها لم تحس فتح الباب ولا خطوه فى الغرفة وهو يقترب منها حتى وقف أمامها وحياها قائلا « سعدت مساء » فرفعت بصرها عن الكتاب ليفاجئها منظر شوكت وقد وقف أمامها رجلا جميلا ومثالا للشباب القوى المعتز بنفسه .. إنه ليس شوكت الطفل الذى كانت تعرفه فيما مضى ضعيفا مدللا .. إنه الشاب الذى يحكى عنه الخدم الشىء الكثير وعن جده واجتهاده فى جامعة القاهرة حيث يعيش الآن معظم أيام السنة وعن ترفعه

على كل من فى القصر ونظره إلى خدمه كمجموعة من القاذورات التى لا غنى عنها .

اعتدلت فى جلستها وهى تحملق فيه كأرنب قد أمسكته نظرات الثعبان فهو لا يستطيع فراراً ومع ذلك لم تكن تشعر بخوف منه بينما عاد هو يقول لها : (هل أعجبك الكتاب ؟) فصحت من غفوتها وهبت واقفة فسقط الكتاب من يدها بعيداً فالتقطه شوكت وطالع عنوانه فأخذه العجب وراح يردد (يا إلهى . . جمهورية أفلاطون ؟) ثم توقف ليسألها :

ـــ ألست سعدية خادمة سوزان ؟

ـــ نعم ياسيدى .

ـــ لكنك تغيرت كثيراً عما رأيتك من قبل . . يوم أتيت تتسولين . . لقد رأيتك يومئذ تمسكين يمامة مسروقة أما اليوم فتقرئين جمهورية أفلاطون .. ربى إن هذا لا يحدث فى قصة .

ـــ إنى لم أتسول ياسيدى لاهنا ولا فى أى مكان آخر .

قالتها فى غضب لكنها عند ما حولت نظرها عنه وقع على الحذاء الأبيض والمنديل الحريرى فى يدها وكلاهما منحة من سوزان فجلت ونكست رأسها إلى الأرض بينما عاد هو يقول : ـــ

— إذن فأنا أسحب كلامى .. لكنى لا أذكر بالضبط المناسبة التى رأيتك فيها غير أنك بالتأكيد كنت طفلة تلبس خرقاً مهلهلة بينما أنت اليوم تقرأين من الكتب المقررة على فى الجامعة فى العام المقبل فأين تعلمت القراءة ؟

— من الآنسة سوزان

— لكنها لاتستطيع قراءة مثل هذه الكتب أو على الأقل لا تستسيغ قراءة أفلاطون فلم اخترته أنت .. لا شك أنه ليس للتسلية ...

— لقد كان فى ترتيبه

— ترتيبه فيماذا ؟

— ترتيبه على الرف

— وبعد ذلك ؟

— الذى يليه ... أظن يجب أن أبرح الآن يا سيدى إذا تكرمت

— وإذا لم أتكرم .. على الأقل حتى أعرف ماذا تفعلين ؟ أتنوين قراءة جميع الكتب التى فى المكتبة ؟

— بالضبط يا سيدى

— وكم قرأت ؟

— ستة ..

— ولماذا بالله ؟
— لأنى أحب أن أتعلم ما فيها
— رباه كم يبدو هذا عجيب . . خادمة أختى . . كم عمرك ؟
— خمسة عشر عاما . . والآن سأذهب ، وأعتذر يا سيدى لأنى أعلم أن ليس من حقى أن أحضر إلى هنا ولن أحضر بعد اليوم .
— سعدية انتظرى قليلا . . لا تتخلى عما اعتزمت عليه . . إنما هناك فهرست فى نهاية هذا الصف يمكنك استعماله لاختيار أحسن الكتب وإلا تسرب الملل إلى نفسك سريعاً . . أفهمت ؟
— أجل يا سيدى
— ستستعملين المكتبة كيفما شئت . . هذا أمر منى . . والآن يمكنك الانصراف
— شكراً يا سيدى .

ما كادت تبرح المكتبة حتى لمحت عثمان خادم شوكت الخاص يرمقها بنظرات ذات معنى فتجاهلته لكنه منذ ذلك اليوم وهو يحصى عليها حركاتها كما أنها أصبحت تحذره وتمقته .

انقطعت سعدية فترة طويلة عن غشيان المكتبة ، لكن شغفها بالكتب دفعها إليها ثانية وكم كانت دهشتها كبيرة عندما وجدت شوكت يلحق بها بعد دقائق من وصولها ، ويحدثها عن الكتب

ويرشدها إلى ما تحسن قراءته .

وظل الأمر كذلك فى كل مرة تزور فيها المكتبة وقد وجدت فيه ناصحاً أمينا وإنساناً مهذباً رقيقا لا يستحق كل هذه الكراهية التى يكنها له جميع من فى القصر من خدم والتى لا يشركه فيها سوى الباشا .

وأخيراً أذن لها فى اصطحاب أى كتاب معها إلى حجرتها حتى تفرغ من قراءته فتعيده إلى المكتبة وتأخذ سواه وقد رحبت هى بالفكرة وفرحت بها فرحاً كبيراً وكانت تخفى الكتاب الذى تختاره تحت طيات ثيابها وهى خارجة من المكتبة .

لكن العلاقة بين الشابين تطورت إلى أكثر من ذلك وكان طبيعياً أن تتطور بل لم يكن من المعقول أن يقاوم شاب يافع كشوكت تفور دماؤه بحرارة الشباب والرغبة إغراء هذا الجمال العارم والشباب المتدفق فى سعدية . . ولقد كانت هى معجبة به من مبدأ الأمر إلى جانب أنه سيدها وابن سيدها وما استطاعت أن تدفعه عن نفسها أو تقاوم رغباته وهى تعلم أن مجيئها إلى المكتبة مخاطرة فى حد ذاته ترغب فى بقائها طى الكتمان فلا يعلم بها الباشا أو الهانم حتى لا تطرد من عملها لا سيما بعد أن مات أبوها وصارت هى عائل أمها الوحيد .

فلم تكن إلا مقاومة ضعيفة بهمس خافت فى أول مرة خشية افتضاح أمرها ولقد بكت بعدها كثيراً لكنها صارت ذليلة أمام طلباته . . وما كانت لتستطيع مخالفة أوامره إذا طلبها إلى المكتبة . . حرصاً منها على عيشها وحياة من تعول .

ومضت ثلاثة أشهر بعد ذلك شعرت أثناءها بأعراض غريبة لم يكن لها بها عهد من قبل وأدركت منها أنها حامل وأنها تحمل فى أحشائها جنيناً ستجرى فى عروقه دماء نبيلة . . دماء من دماء السادة الأشراف . . يا للمصيبة ؟ إلى أين تمضى إذن إذا افتضح أمرها ؟ وكيف تضع هذا الجنين فى الخفاء ؟ وماذا تفعل به ؟ وماذا يكون الأمر بعد ذلك ؟

ساورتها الهموم وانتابتها الوساوس وأقض مضجعها الحزن وظهرت أعراض كل ذلك عليها وما أن استفسر منها شوكت ذات يوم عن سر اكتئابها حتى انفجرت باكية واعترفت له بما جد على علاقتهما وطلبت منه أن يتدبر معها الأمر فقال لها :

— يا حبيبتى ليس هناك ما يدعو إلى كل هذا الحزن .

— وإذا افتضح أمرى فألام المقر ؟

— هونى عليك يا سعدية . . ألم تعلمى بعد إنى أحبك ؟

— أعلم ذلك جيداً لكن ما جدوى هذا الحب ؟

— أتعتقدين أنى أفرط فى وجودك إلى جانبى ؟

ـ ماذا تعنى ؟
ـ أعنى أنى أريدك لى زوجة ولن يفرق أحد بيننا . .
ـ هل تعنى ما تقول يا سيدى ؟
ـ ولن تمنعنى أى قوة فى الأرض . .
ـ وكيف السبيل إلى ذلك ؟
ـ أعلم أن والدى متعصب لطبقته من الأعيان والباشوات ولن يرضى عن مثل هذا الزواج ، لكنه أمر يخصنى وحدى أنا الذى سيتزوج وعلى ذلك سأقص الأمر على والدتى .
ـ بالله لا تفعل ولا تعجل بالفاجعة . . إن والدتك لا تستطيع أن تخالف سيدى الباشا أبدا . .
ـ لا إنها سيدة طيبة القلب فضلا عن إنها تحبك يا سعدية ولا شك فى أنها ستقف فى صفنا وستكسب رضى والدى عن هذا الزواج .
ـ أخشى أن تخذلنا وتضعف أمام أبيك كما تفعل دائماً وسيكون فى ذلك نهاية حياتى فى هذا القصر بل وربما فى الدنيا لأنى لن أعرف كيف أعيش إذا طردت من هنا . .
وقص شوكت الأمر على والدته وتوسل إليها أن تبارك هذا الزواج من أجل سعدية المسكينة ومن أجل الجنين البرىء الذى لم ير نور الحياة بعد والذى سيشقى بوزر أبيه إن لم يتزوج من أمه .

كانت المشكلة أكبر من أن تجد لها نعمات هانم حلا بمفردها وهى التى تعتمد فى كل أمورها على من يحوطونها وتخضع خضوعاً تاماً لإرادة زوجها كما كانت تعتقد فيه رجاحة العقل وإصابة الرأى ، فلجأت إليه تستشيره فى الأمر بأمل أن تستطيع استدرار عطفه على الشابين ، لكنه ثار فى وجهها ثورة عنيفة ولعن ذلك اليوم الذى سمح فيه لتلك المتسولة القذرة بدخول بيته وألقى التبعة واللوم على زوجه الغافلة عما يجرى فى بيتها واستدعى شوكت فى الحال لمقابلته وما أن رآه حتى قال له فى لهجة الآمر الذى لا يقبل مراجعة أو جدال « ستسافر الليلة للالتحاق بالبحرية .. لقد إنتهى عهدك بالجامعة فلتذهب الآن إلى البحر ولتكن بطلا يخلد ذكرى أجداده العظماء .. لا سيما والبحرية اليوم سلاح جديد سيكون له مستقبلا باهراً ، وها هو القتال قد نشب فى فلسطين .. فكن رجلا كما عهدتك » .

انصرف شوكت وهو لا يدرى ماذا يفعل وقد قر رأى أبيه على إبعاده من البلاد كلها وحرمانه من الزيارات العابرة التى كان يقضيها فى أسيوط أثناء العام الدراسى .. أواه إنه لا يدرى ماذا يفعل .. إنه لو عاد إلى الجامعة ربما وجد فرصة للتفكير والتكفير .. والبر بوعده .. لكن

وبينما شوكت مستغرق فى تفكيره فى غرفته كانت سعدية

ماثلة أمام الباشا تستمع إلى حكمه القاسى عليها .. « أنت أيتها القذرة لم تكونى فى يوم من الأيام أهلا للنعمة التى أسبغتها عليك .. هاك هذه الورقة وقعى عليها .. »

أمسكت سعدية بالورقة فوجدتها إقرارا يجردها من كل حق لها قبل آل محب ، وتعترف فيه بأنها تركت العمل بمحض إرادتها ، وبأنه ليس لها أى حق أو التزام قبل أى فرد من أفراد الأسرة

وقعتها دون تردد وقد أدركت أنها الخاتمة وسلمتها للباشا وهى تسأله « هل لسيدى أى خدمة أخرى ؟ » فألقى فى وجهها بورقة نقد قائلا « هاك عشرة جنيهات لتنفقى منها ريثما تجدين عملا آخر » .

سقطت الورقة على الأرض فلم تنحن سعدية عليها بل نظرت إلى الباشا فى ازدراء وقالت له بصوت يقطر مرارة « متى كان للعبيد حقوق على أسيادهم حتى تنتزع منى هذا الاعتراف ؟ ومتى كان ينتصف المعبد من الباشا ؟ وفر عليك نقودك فقوى الدولة كلها تحميك .. أما العبيد فلهم رب جبار لا ينساهم ولن يغفر لكم إجرامكم وقسوتكم .. إنى ذاهبة إليه .. »

خيم الصمت على الجميع وانصرفت سعدية فى هدوء لتنضم إلى موكب العبيد الكادحين فى الأرض حاملة فى أحشائها دليل عارها متحملة وحدها نتائج زلتها وقد خفضت بصرها إلى الأرض التى قيدت إليها بقيود من حديد لا يلين .

وقهقه الباشا ملء شدقيه بعد أن أغلق خلفها باب القصر العتيد وقد انجاب عن صدره كابوس ثقيل .

أطلال تناديني

أبي . . .

مادمت قد أبيت على أن أعود إلى بيتك ، ورفضت أن أرجع لأعيش فى حماك كما كنت من قبل ، فاسمع إلى اعترافى الأخير علك تغفر لى ما توهمته من عصيانى فتذكرنى بكلمة خير أو دعوة صالحة ، تخفف عن روحى الشقية لعنة الآلهة ، وتساعدنى على ولوج ملكوت السماء أو تعيننى على بلوغ رضا الرب فى علاه .

لقد أحسنت الظن بتعليمك العالى وروحك « المودرن » وظننت أنك بلغت شأواً عظيما فى الإقتباس من روح الغرب ، وهذا ما حدا بى رغم سبق غضبك على أن أطرق بابك ثانية لكن وا أسفاه لقد غلب الطبع التطبع وانتصرت روح البيئة العتيقة على روح العلم الحديث والتسامح الإنسانى الذى تعمل الإنسانية على بلوغه فأبيت أن تغفر لى ما توهمته من إجرامى لكن رفقاً بأبنتك فأنت شريك فى هذه الجناية المدعاة .

يقول رسول الله للمسلمين فى حديث له عما يفترض على الرجل من العدل بين زوجاته فى الأمور المادية « هذا قسمى فيما أملك ولا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك » . فهل وعيت معنى هذا

القول العظيم ! لقد فرغ الرجل من العدل بين زوجاته لكنه عجز عن العدل بينهن فى ميله القلبي .. لأن القلوب بيد الله يحركها كيف شاء لنفاذ قضائه المحتوم .. ولما كان الأمر كذلك فقد فرض الإسلام صيانة المرأة على لسان السيدة فاطمة الزهراء فى « ألا ترى رجلا وألا يراها رجل » أى ألا تخلو إلى رجل ولا يخلو إليها رجل لما فى ذلك من تداع للعواطف وتبادل للود الذى قد يفضى إلى حب محرم كالذى وقعت فيه .. فهل أدركت هذه الحكمة السامية التى هى أبلغ من كل علم ما تعلمته وأخلد من كل طبع دخيل تطبعت به ولكنه عجز عن أن يسكن فى قلبك ويصبغ روحك التى ظلت كما هى شرقية لم تتغير ؟

لقد انسقت يا أبتاه مع تيار المدنية الغربية الجارف وأبحت لنا الإختلاط بأصدقائك ومعارفك ومن بينهم ذلك الشاب المسلم فهمى الذى كان يخيل إلينا جميعاً أنه أقرب أصدقائك إليك وأصفاهم لك ، ولقد كان جديراً بذلك فهو وديع الخلق واسع العلم حلو الحديث جميل الصفات رجلا بما فى الكلمة من معنى . وقد جمع إلى ذلك جمالا فى الخلقة والتكوين ، فهو معتدل القوام عريض ما بين المنكبين أسمر الوجه يلمع فى عينيه الداكنتين بريق خاطف يوحى بالأمل الواسع والحياة الفياضه المليئة بالقوة والفتوة .. واسع الجبهة ، سعة أفق تفكيره وذكائه المفرط .

إن مثل هذا الشاب يحقق أحلام أية فتاة ويملأ فراغ قلبها بالحب والآمال العذاب من جلسة واحدة أو مقابلات قليلة. فما بالك وقد تعدد جلوسى إليه والاستماع بشهى حديثه والاستزادة من حسنه ورجولته فى جلسات طويلة متعددة فى سنتين متواليتين وأنا أغالب قلبى وهو يغالب نفسه وكلكم أعمى عن هذا الصراع العنيف الذى كان يضطرب به صدرى وصدره.

لقد كنت أعلم ما يعترض هذا الحب من عقبات وكان يعلم هو وعورة طريقه. بل كان كثيراً ما يحاول الإقلال من زيارتنا حتى لا يستفحل أمر هذه العاطفة فى قلبه لكنك أنت كنت تلح عليه فى الحضور وتمعن فى التودد إليه ولا تدعه فى يوم حتى يعدك بالحضور فى يوم آخر، ولو أخلف وعده تكثر عتابه لأنك كنت به شغوفاً وبصداقته فخوراً وعلى بقائها حريصاً. وبهذا كنت تفسد تدبيره وتعمل على اضرام هذه الجذوة المتقدة فى قلبينا حتى عجزنا عن المقاومة واستسلمنا لهذا الحب الجميل. ومن كان يستطيع أن يقاوم ميل قلبه والقلوب بيد الله يحركها كيف شاء لنفاذ قضائه المحتوم.

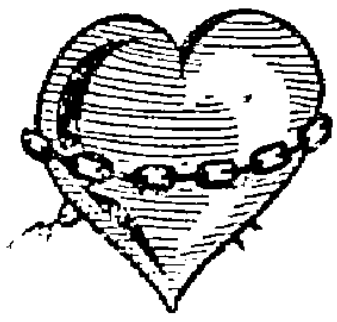

إن الإنسان لا يدرى متى بدأ هذا الحب فى قلبه ولا علة نشوئه ولا سبب استعاره ولو حاول تعليل ذلك بحجج واهية وتعلات

سقيمة لا تستقيم مع عقل أو منطق لكنه هو الحب قد ملأ شغاف القلب واستحوذ على مشاعر النفس وكفى .

وكان فهمى جديراً بصداقتك أميناً على عهدك فلم يرم من وراء حبه إلى عبث أو خيانة بل كان نبيلا فى عاطفته صادقاً فى شعوره فحاورنى مراراً عديدة فى أمر حبنا وأراد كثيراً أن يحكم العقل فى العاطفة وأن يقنع نفسى ونفسه بالعدول عن هذه العلاقة الخطيرة لكن كان نداء القلب يدوى فيكاد يصم آذاننا ؛ وكانت عاطفتنا فى عنفوان فورتها وقوتها أقوى من كل تدبير أو تفكير فعصفت بحكمة العقل وسخر القدر من تدبير الفكر ولم يعد أمامنا مناص من الاستجابة لهذا الحب العنيف المقدس وهذه الشعلة الزكية التى أضاءت منا القلوب .

كان يعلم بتربيتك الحديثة واقامتك الطويلة فى فرنسا فى البعثة التعليمية وكان يلمس روحك « المودرن » بعد طول مصاحبتك وكنت أحسب أن ذلك حق وأنك صرت فى ذلك روحاً ، وعقلا فأغريته أن يتقدم إليك ليخطبنى ولم أكن أدرك أن ذلك تكلف مصطنع ورياء وتظاهر أمام الناس . . لم أكن قد فهمت بعد أن الحياة خداع ونفاق . . وأن الناس يعيشون فى مهزلة متصلة الفصول والحلقات ويحيون فى تمثيل متواصل .

وبعد تردد طويل تقدم إليك يطلب يدى فحدث ما توقع

وأكثر مما توقع . لقد قابلته فى بيتك أسوأ مقابلة وطردته شر طردة واتهمته — وهو النبيل الخلق العف النفس واللسان — بالخيانة والخسة والدناءة والدنس وهو ما حاول خيانة ولا حاول أن يمس بيتك بما يشينه أو يدنسه .

خرج من لدنك كاسف البال حزين القلب مبتئس النفس .. وقد آلمه ولا شك ما سمع منك وجرح كبرياءه ما واجهته به من اتهامات مروعة . وشعرت أنا كأن الأرض تميد بى وكأن سعادتى تؤذن بالرحيل وبأن آمالى توشك على الأفول .

ومضت الأيام طويلة مؤلمة ولم يعد يطلع علينا فهمى بابتسامته الدائمة وروحه المرحة وحرمت من جلسته المؤنسة وحديثه العذب وأقفر المنزل على وأظلم أمام ناظرى وأوحشت ليالى بدون هذا الحبيب .

وثقل الأمر على نفسى ، وكبر الخطب على قلبى . فانتابنى الحزن والكآبة واضطربت أعصابى وسلبنى السهاد لذيذ الكرى ، وأقض التفكير الطويل مضجعى ، فاستحالت ليالى إلى قطع من الجحيم أصطلى نيرانها وأتعذب بلفحها وأبكى فى سوادها سواد حظى وأرثى فى سكونها حى الوليد الذى لم يكد يتفتح عليه قلبى حتى عصفت به الأقدار .

ولما عظم بى الكرب ونفد منى الصبر سعيت إليه يقودنى قلبى

الجريح والتفيت به فى بيته ، وكنت أتوقع أن يطردنى كما طردته لاسيما والحادث لم يكن قد مضى عليه سوى عشرين يوما ، وكنت أود أن يفعل حتى يثأر لكرامته المهانة ويداوى جروح نفسه المتألمة لكنه كان كريما رحيما ترفق بى فى لقائى ودهش لمرآى حتى أنى لم أتمالك نفسى ففاضت عيناى بدموع غزار ، وألقيت بنفسى بين ذراعيه ، وأسندت رأسى إلى صدره ألتمس بجوار قلبه الكبير سلاما لنفسى المضطربة ...

وبعد أن هدأت ثورة اللقاء حدثته برغبتى فى العيش معه والاقتران به فأخذ يحاورنى فى الأمر محاولا إقناعى بالعدول عن هذه الفكرة التى ستسبب لنا متاعب كثيرة ، ولك ولأهلى جميعا ألما بالغا بغير ما سبب وجيه يدعو إلى ذلك ، الرجال كثيرون وقد أعثر بين المسيحيين على من هو أحسن منه وأعظم منه قدر . . أجل هكذا كان يتحدث وأنت تعلم من هو بين الرجال ، ولا يخفى عليك قدره إذا قورن بغيره من الشبان .

ولما أن طال بى جداله وأخذ على فى قوة وبرهان جميع المسالك صحت به (إذن أنت تريد التخلص منى ولم يكن هناك حب فى قلبك بل رميت إلى العبث بى والتلهى بحبى) بان الألم جليا على وجهه وكأنما طعنته طعنة حادة مصوبة إلى قلبه فتراخت أعضاؤه وغرق فى صمت طويل عاد بعده ليقول لى فى صوت

خائفة حزينة ، فائزة .. أنت تعلمين مبلغ حبي لك . إنما هو حب عقيم وأنا أبحث عن مصلحتك ... عن راحتك ... عن سعادتك وهي تتوقف على رضاء أهلك إلى حد كبير »

لكني كنت مصرة على البقاء إلى جانبه وكنت أرى الاسعادة لى فى الدنيا بعيداً عنه فصارحته برأيي وبعزمى الموطد على ذلك إن لم يطردني من بيته ويتخلص منى ، فطلب إلى العودة إلى بيتى حتى يستعد للأمر ويعد لى منزلا لائقاً .

وبعد شهر من هذا اللقاء انتقلت إلى بيتى وسكنت فى جوار زوجى وحماه . ولم تجد محاولاتك الإرهابية والودية للتفريق بيننا ؛ لأنى لم أكن قاصرا إنما كنت رشيدة لها حرية التصرف فى نفسها بما يمليه عليها عقلها . وثق أنى ألم ندم لحظة على ما فعلت لكنى لا أنكر أنى أسفت وحزنت لما قررتم إنكار وجودى ، وقاطعنى أهلى جميعاً من أجل هذا الزواج المشروع الذى لبيت فيه نداء قلبى ونلت به حقى من الحب وهو حق لا ينكر على إنسان له قلب ووجدان .

وثق يا أبى أنى بقيت مسيحية وسألقى ربى مسيحية . أنك لا تتصور كم كنت سعيدة خلال هذه السنوات الخمسة وكيف كنا نحيا فى نعيم وهناءة فى ظلال التسامح الجميل .

لقد استطاع زوجى بروحه الكبيرة أن يشاركنى قلبياً فى

أعيادى ، وكما جعلنى أنعم بنعمة التسامح أصبحت أرى لزاماً على أن أبادله هذه الروح الجميلة ، فكنت أشاركه أعياده وأفرح بها كما يفرح معى فى أعيادى ولن أنسى يوماً اجتمع فيه العيدان فكان سرورنا مزدوجا وسعادتنا بالغة منتهاها وهكذا لم أكن أشعر بغضاضة قط لكونه مسلما كما لم ألحظ يوماً عليه تبرماً لأنى مسيحية بل تركنا أمر العقيدة لصاحب العقائد ومصرف القلوب .

وأنى أستميحك عذراً فى تقصيرى عن وصف هذه الأيام السعيدة ، وأعتذر للسعادة لعجزى عن إيفائها حقها من التسجيل وقصور قلمى عن إجادة وصفها ، لأنى نسيت معنى السعادة ودمرت الأيام أطلال صورها من قلبى فلم تبق على شىء منها تتعزى به النفس أو تنسج على منواله فى الوصف .

أجل . . فبعد خمسة أعوام سعيدة بدأت ألحظ على زوجى وجوماً يعتريه بين حين وآخر وكثيراً ما فاجأته وقد شردت نظراته وبدا الأسى المرير مرتسما فى أغوار عينيه ، وعندما كان ينتبه لوجودى يقبل علىّ باشاً مداعباً .

ثم ازداد فى أيامنا الأخيرة حدباً وعطفاً على ورعاية لى واهتماماً بشئونى بصورة لفتت نظرى وتركتنى فى حيرة أقلب فكرى علىّ أظفر بسر هذا التحول العجيب !

إلى أن جاءنى ذات يوم وأعد متاعه للسفر إلى المنصورة

للتفتيش على فرع الشركة هناك . ولم يكن سفره أمراً مستغرباً ، ولم يكن تغيبه لأسابيع متوالية فى أعمال التفتيش فى مختلف البلدان بالأمر الجديد على ، لكن هذه المرة حمل إلى البريد فى الصباح التالى لسفره رسالة منه على غير عادة .

لقد كانت تصلنى رسالة قبل عودته بيوم أو يومين . لكن هذه الرسالة وصلتنى مبكرة وفيها يقول : « إنى لا أدرى بماذا ستتهمينى ولا بأى وصف ستقذفينى ، لكن تمهلى فى حكمك وترفقى بزوجك واغفرى له ما اقترف من ذنب إن رأيت أنه اجترم فى حقك أصرا .

إنى لم أجرؤ خلال عام تقريبا أن أصارحك بالحقيقة المؤلمة ولو لم أكن أحبك حباً تعرفين مقداره فى قلبى وتأثيره فى نفسى لما تحملت كل هذه الآلام لأكتم عنك ولما وجدت كل هذا الحرج فيما أتيت .

إلا أنى مقدر تضحيتك فى سبيل زواجنا وهى تضحية فاحشة بلا شك . إنى أعلم أنك خرجت على أهلك وأنكرك أهلك حينما تزوجتك . أعلم أنك هجرت كل شىء ورضيت أن تعتزلى العالم وتحملت استنكار الناس واستهجانهم وسخريتهم وساقط أقوالهم فى سبيل حبنا . أعلم أنك احتملت كثيراً وكثيراً جداً فى هذه السبيل وكم كان جميلا بى أن أبقى على عهدك وأفى لك وعدك

إنى ولا شك فاعل . . لو استمعت إلى وقدرت ظروفى وكان لى فى قلبك الواسع ملاذاً يغفر لى ما أثمت فى حقه ولا يحملنى ما لا طاقة لى بحمله ولا يحمل على بأكثر مما استحق من لوم وتأنيب . أتفعلين يا فائزة ؟ تروى وحكمى العقل . انتظرى حتى تمضى الثورة وتهدأ نفسك ثم انظرى فى الأمر . إنى واضع نفسى بين يديك منتظر حكمك العدل . .

أنك لم تعلمى أن حسنية إبنة عمى وكانت قبل زواجنا فتاة صغيرة فى السادسة عشرة من عمرها تتفتح براعم قلبها لتستقبل ضوء الحياة ودفئها . كانت تبدى لى بعض الميل الذى كنت أتجاهله لصغر سنها وعدم مناسبتها للزواج فى تلك السن المبكرة مع ذلك العقل الذى لم ينضج وتلك الخبرة الناقصة .

لكنى كنت أعطف على شعورها وأبادلها هذا الميل بحنو أخوى وأعاملها كما أعامل أختى الصغيرة ، وهى تنمو مع الأيام ويكمل عقلها وتنضج أنوثتها ولا تزداد إلا انسياقاً مع عاطفتها مع علمها بزواجى وتوفيقى فى هذا الزواج وظللت أتجاهل ما تبديه نحوى وأقلل من زياراتى لعمى حتى أصبحت هذه الزيارات نادرة للغاية .

وذات يوم منذ عام تقريباً التقيت بها فى الطريق فأقبلت

نحوى مسرعة وأمسكتنى من ذراعى وقادتنى إلى محطة الترام وهى تقول لى « إنى أريد أن أستشيرك فى أمر هام » .

وكنت أحسب أن هذا الأمر لن يعدو السؤال عن شاب تقدم لخطبتها وهل هو مناسب أم لا وهل من الأوفق أن تتزوجه أو تتريث فى الأمر أم أن هناك خلافاً بينها وبين زوج أبيها وتريدنى أن أصلح بينهما .. كنت أفترض كل شىء إلا ما حدث . فقد نزلنا من (المترو) وتوجهت بى إلى (كازينو) هادىء فى شارع منعزل يشرف على الصحراء وجلست أمامى وقد ثبتت نظراتها على وفاضت على عيناها بفيض من المعانى والكلام وكلما همت بالحديث ارتج عليها وأمسكت ثم انهمرت الدموع من عينيها غزيرة وظلت فى بكائها وأنا أهدئها حتى سكنت ثورتها وتمالكت نفسها فعادت تتحدث إلى بحديثها ... أتدرين ماذا قالت ؟

لقد قالت « فهمى أنت كنت أملى الوحيد .. كنت دائماً أعتقد أنك الذى سينقذنى من زوجة أبى وقسوتها . كنت أحبك منذ أن عرفت لهذه العاطفة وجوداً .. لكنك كنت قاسياً وكنت أبلغ فى قسوتك من زوج أبى . لقد تجاهلت وجودى واعتقدت أنى لست إنساناً أو نسيت أن لى قلباً مثل سائر البشر لم ؟ لم هذا يا فهمى ؟ كنت أظنك ستتقدم لانتشالى لكنك مضيت بعيداً عنى » .

ثم انتابتها نوبة من البكاء ثانية فأنهضتها وتركنا المقهى حتى لا نلفت الأنظار وأخذت فى الطريق أهدىء من روعها وأطمئنها على مصيرها وأذكرها بعدل الخالق العليم بما يجرى بين خلقه ، الرؤوف بعباده لكنها لاذت بالصمت ، ولم تجب بكلمة إلى أن أوصلتها إلى بيتها وأصارحك الحقيقة . أنى منذ تلك الليلة بدأ شعورى يتغير نحو حسنية . لم أعد أنظر إليها كأختى الصغرى بل كضحية من ضحايا الإنسانية ألقى على عبء إنقاذها وتخفيف آلامها .

لقد تزوج أبوها بعد وفاة أمها من خالتها وكان يحسب أنها ستكون أبر الزوجات بابنة أختها لكن الحقيقة أنها أخبث النساء طوية وأقساهن قلباً ، ولقد افتنت فى تعذيب هذه المسكينة ، حيل شتى وأساليب ماكرة ولم تأخذها بها شفقة ولا رحمة ولست أدرى أى عقلية توحى إليها بهذا الشر ؟ وإلى أى هدف تهدف ! ولماذا تغار من إبنة أختها وهى لن تسلبها شيئاً مما يغدقه عليها زوجها.

لقد أظلمت الدنيا أمام عينى المسكينة وانتابها اليأس وعصف بها الهم ، وأخيراً أصابها مرض عصبى أصبح يخشى منه على حياتها . وكان لمرضها أكبر الأثر على موقفى حيالها . لأنها أصبحت تستأثر بجزء كبير من تفكيرى ، وأصبحت أرى لزاماً على أن أخطو خطوة إيجابية فى سبيل الترفيه عن هذه الفتاة .

أكثرت حينئذ من التردد على منزل عمى وكنت فى بعض الأحيان أصحبها إلى ذلك المقهى المنعزل الذى قادنى إليه فى تلك الليلة العاصفة من تاريخ علاقتنا وهذا المقهى يبعد كثيراً عن بيتها . فكنا نمضى شطراً من الوقت هناك فى تجاذب أطراف الحديث وأحياناً كنا نفضل التنزه سيراً على أقدامنا فى هذه الطريق القفرة الصحراوية المنبثة فى أنحاء ضاحية مصر الجديدة . فى دائرة ضيقة لا تبعد كثيراً عن منزلها حتى لا تتأخر فى العودة فتتعرض بذلك لحملة قاسية من خالتها .

وكنت طوال هذا الوقت أفكر وأراجع نفسى « لم لا يتقدم أحد لخطبة هذه الفتاة وهى جميلة كما تعلمين وعلى جانب من الثقافة لا بأس به جمة الأدب تجيد أعمال المنزل إجادة تامة فينقذها وينقذنى ؟ » .

ولكنها كانت فقيرة لا تملك شيئاً ولعل هذا هو علة إعراض الشبان عنها ، لأن الشباب اليوم يسعى وراء المال والجاه حتى يأمن عوادى الأيام ويضمن المستقبل الباسم .

وأصبحت أنا بمرور الأيام أزداد بها شغفاً وبقربها تعلقاً حتى انتهيت إلى اليقين بأننى أحببتها وبأنها أصبحت لحياتى شيئاً لازماً كما كنت لها ، وهى نتيجة كما ترين لم يكن منها مفر مع هذه الظروف التى أحاطت بنا . وأنا اليوم معها بالمنصورة نقضى

أيام ننوء جنا فى انتظار حكمك على .

ثقى يا فائزة ، إن هذا لم يعن قط أننى سلوتك بل إننى لا زلت أحبك وتتمنى حسنية أن تشاطرك العيش وتحيا فى حماك وقربك لأنها تعتقد فيك الطيبة والخير وتؤمن أنها ستكون أحسن حالا بجوارك مما كانت فى بيت أبيها . فهل تقبلين يا فائزة أن تستضيفى حسنية . فى قلب زوجك ثم تقطن هى فى أى مكان آخر من المدينة ؟

أنا فى انتظار ردك على . . »

هكذا تلقيت صفعة منه أقوى ما تكون ، لقد خيل إليه وهو يكتب خطابه إلى أن الأمر هين وأن وقع المصيبة محتمل . .

ولعله بالنسبة له هين لأن قلبه ناداه وألح عليه فى النداء كى يتبع قريبته ولم يجد هو حلا للمشكل إلا أن يلبى نداء قلبه ولم يجد مخرجاً من حيرته إلا أن يتزوجها ، وله العذر لأن ميل النفس أمر خارج عن حكم العقل ولا سلطة لنا عليه . والقلوب بيد الله يقلبها كيف شاء ويوجهها اذا أراد . .

ولذا نهى الإسلام عن اختلاط الرجل بالمرأة ليجنب كليهما مزالق العاطفة التى لا تستدرك ، وحكمته فى ذلك بالغة واضحة لمن اكتوى بنيران التجارب وعلمته حوادث الأيام .

وهكذا خيل إليه إنى سأتلقى النبأ بنفس هادئة مستسلمة . .

لكنه نسى إنى إمرأة وأنه طعنها فى وجودها وأذل كبرياءها بفعلته . لقد حكم على بهذا حكما مريعاً . . قضى بأنى لست أهلا لأن أملأ فراغ قلبه وأرضى أهواء نفسه . وبأن جمالى ليس كفؤاً ليشغف به عقله .

فإلى أى هوان طوح بى وإلى أى بؤس هوى بى وإلى أى مهانة نزل بى ! ؟

لقد حطمت كبريائى وأهنت كرامتى وذلت نفسى بين النساء وما كنت لأستطيع البقاء له . .

لكننى يممت وجهى شطر بيتك وأبيت على العودة يا أبتاه . . لم يبق لى مكان فى هذا الوجود ، لم يعد بى حاجة للحياة . .

عند ما تصل هذه الرسالة بين يديك أكون قد لقيت ربى فلا تحاول البحث عنى وداعاً . . وداعاً لك يا أبى ووداعاً يا أماه ووداعاً يا من أحببت .

فائزة

زهرة . . .

كانت زهرة من زهور الربيع
تبتسم فى خفر وحياء
لمشرق الشمس الدافئة
ومطلع اليوم الوليد . . .
مترددة فى خطوها . . .
وجلة فى خدرها . . .
لقيتها ذات مساء . . .
فأعجبنى منها حسن ورواء
وأدهشنى عقل وذكاء
وكبل قلبى بقيود هواها
تجاوب عقلى وروحى عجيب ..
فأحببتها . . .

✡ ✡ ✡

وأشرقت شمس الصباح
عن أجمل وردة لقيتها فى وجودى
وانسابت فى الجو حولها
أنسام سحرها المعبود
وفتنة عقلها ورقة روحها
وتفتحت نفسها للحياة والشباب
وأشرق قلبها بنور الحب
والصفاء . .

✡ ✡ ✡

وأقبل مساء آخر . . .
وقد أفاق ذهنى قليلا من خمرة
الحب العارم
وتفتحت عيناى على حقيقة
الوجود الصارم
أنها ليست لى . . .
بل دونها عقبات وأهوال ..؟
ربى .. إلام أسير؟ وما النهاية .

رئيس البنائين

[هذه القصة منقوشة على جدران
أحد معابد مدينة هابو]

لما أحس زينون دنو ساعة الرحيل دعا إليه ولديه وأمرهما بالاقتراب من سريره ليفضى إليهما بوصيته الأخيرة لكنه لم يستطع مواصلة الحديث وهو نائم لتقطع صوته وضيق تنفسه فرفعه هيروتاتف — ابنه الأكبر — وأجلسه ثم أسنده إلى صدره فاستراحت أنفاسه واستأنف حديثه إليهما « تعلمان يا ولدىّ أنى كنت رئيس البنائين عند الملك السابق وقد كنت أقوم فى الأيام الأخيرة ببناء مقبرته العظيمة ، ولم أدخر وسعاً فى العناية ببنائها وتزيينها بكل روائع الفن الذى تعلمته لكن الملك مات وهو فى عنفوان القوة والحيوية ولم تكن المقبرة قد تمت بعد وخلفته من بعده على العرش ابنته الملكة الشابة وذات يوم — وكانت إجراءات التحنيط والإعداد للدفن قائمة على قدم وساق — استدعتنى إليها وأمرتنى أن أواصل العمل فى المقبرة لإتمامها حتى تكون أروع مقابر مدينة هابو فقلت لها « يا مولاتى

أمرك مطاع وخدمتك أحب الأشياء إلى نفسى فى الحياة لكن يا مولاتى أن الاستمرار فى البناء بعد وفاة صاحب المقبرة أمر لم تجربه التقاليد ولا أوامر الآله ويأباه الدين ، وأن مولاى والدك العظيم له الفضل علىّ مدى الحياة ، وأخشى أن تلحقه لعنة الآلهة فى قبره إن أقدمت على هذا العمل .. أنى حريص على سلامة روحه فى رحلتها فى الآخرة » فأصرت الملكة على تنفيذ أمرها . لكنى رفضت الخضوع لهذا الأمر حتى لا أغضب الآلهة فجن جنون الملكة وعظم غضبها علىّ وطردتنى من خدمتها وعلم أهل المدينة بالحادث فانفضوا عنى ولم يجرؤ واحد منهم على أن يستخدمنى فى عمل حتى لا يلحق به غضب الملكة الذى حل بى وبكما ، ففقدنا جميعا أعمالنا .. وها أنا يا ولدىّ راحل من هذا العالم وعما قليل سأشرع فى رحلتى إلى مملكة السماء . وأعلم أن ما تبقى لى من مال لن يدوم معكما طويلا .. وأنى مشفق عليكما من تقلبات الزمان وصروف الدهر وسوف يؤلمنى فى رقدتى الأبدية أن أعلم أن الجوع أصابكما أو أن الفقر قد حل بكما حتى اضطركما لسؤال الناس وذله وقد عشتما حياتكما منعمين مكرمين .. لتغفر لى الآلهة وليغفر لى الإلـه رع العظيم ما سأقوله لكما . . أتعلمان أين تقع مقبرة الملك ؟ حسنا .. إن لها فى منتصف الناحية الجنوبية مدخلا سرياً على عمق مترين فى الرمال ينفتح على ممر طويل ينتهى إلى

تقاطع يؤدى إلى ثلاث ممرات أخرى .. اتجه إلى الغرب منها ينتهى إلى حجرة الكنز .. فإذا ما أعجزكما الكسب يوما ولم تجدا قوت يومكما وأمكما ولم تعرفا حيلة تحتالان بها على تدبر عيشكما .. توجها إلى حجرة الكنز فخذا بقدر حاجتكما للعيش فقط وإياكما والطمع .. لتغفر لى الآلهة .. إنهما إبناى وسأتركهما فى الحياة وحيدين وأريد أن أشعر بالسلام فى قبرى .. سامحنى يا إله العالمين»

☆ ☆ ☆

مات زينون ومنذ وفاته لم ينقطع هيروتاتف وأخوه الأصغر تيتا عن البحث المتواصل ليجدا عملا لهما لكن الناس كانت تعرض عنهما وتأبى استخدامهما حتى لا يصيبهم غضب الملكة أو تحل عليهم لعنتها .

وكانت الملكة مرهوبة السلطان تحكم رعيتها بالعنف والشدة ولا تأخذها بأحد رحمة فكان الناس يتحاشون إثارتها أو المخالفة عن أمرها بينما يكتمون فى صدورهم الثورة عليها ويرفعون أيديهم فى الخفاء بالدعاء عليها واستمطار الرحمة على أبيها الذى ترك فيهم ذكرا حسنا .

وذات يوم جلس تيتا عند الأصيل على شاطىء النيل الشرقى وقد أمضه الألم وأنهك قواه السعى دون جدوى وحز الجوع فى أمعائه وأنه ليضغط على بطنه بفخذيه من الألم إذ أقبل أخوه

هيروتاتف وجلس إلى جواره مطرق الرأس مثقل الفؤاد بالهم والحزن وقد زاد فى أحزانه ذلك المنظر الأليم الذى رأى أخاه عليه .

وبعد ساعة من صمت رفع هيروتاتف رأسه وقال : ــ

ــ وبعد يا تيتا ؟ .

ــ لا أدرى يا أخى ..

ــ لقد نفد ما لدينا من زاد

ــ إن الله معنا .. أتراه يخذلنا ؟

ــ أرى الجوع قد انهكك وأحالك إلى موميا قديمة حائلة

ــ لقد فكرت منذ ساعة أن آكل شيئاً من العشب الأخضر النامى على شاطىء أبينا النيل

ــ أو فعلت ؟

ــ ولم لا ؟ ونشرب من مائه الجارى .. أليس لنا أب رحيم ؟

ــ ويأكل غيرنا شهداً وقمحا ؟

ــ تلك إرادة رع ؟ ..

ــ لا .. لا يا أخى أنه ظلم الإنسان ..

وعاد الصمت يخيم على الأخوين بينما كانت الشمس تغرب من خلف تلال مدينة هابو على الشاطىء الغربى مرسلة أشعتها

الذهبية على صفحة السماء تضفى عليها من الألوان فنونا عجباً وتنعكس على صفحة النيل حمرة مختلفة ألوانها فتارة تميل إلى الصفرة ، وفى موضع آخر لازوردية ، وفى بقعة ثالثة دكن ارجوانها فكأنها جمرة علاها الرماد فى موقد هادىء النيران .

ورفع هيروتانف رأسه نحو السماء يبحث فى صفحتها عن بعض اليسر والفرج ، ثم عاد يرسل البصر عبر النهر يبحث فى صمت هابو عن متنفس لما يعانيه من ضيق ، وفجأة انتفض واقفاً وصاح بأخيه : « هيا يا أخى .. أسرع بنا إلى الشاطىء الآخر لننفذ وصية أبينا الكريم .. » وقام تيتا متثاقلا يتبع أخاه الذى قفز فى أحد زوارق الصيد الصغيرة بعد أن توسل إلى صاحبه كى يعيره إياه ليعبر به النهر ويعود سريعاً بعد أن يزور قبر أبيه الذى فاض به الشوق إليه .

وهناك وقف الأخوان يناجيان الوالد الثاوى ويستئذنانه فيما هما مقدمان عليه ليحفظا على نفسيهما الحياة ويطلبان من روحه العفو والدعاء ، وفجأة انفجر تيتا باكيا وخر إلى الأرض يعفر وجهه بالتراب فأنهضه أخوه وتوجها إلى مقبرة الملك ، وفى غفلة من حراسها — الذين لا يخطر لهم ببال أن يجرؤ لص على العبور إلى هابو بعد الغروب — كشفا عن المدخل السرى للمقبرة وانطلقا إلى داخلها حتى بلغا غرفة الكنز فتدلى فيها تيتا

وناولا أخاه بعض الغذاء والمال ثم رفعه هيرو وتاتف من الغرفة وعادا سالمين .

* * *

تكرر عبورهما إلى هابو كل بضعة أيام بعد أن ينفد مالديهما من زاد فيدخلان المقبرة ويعودان بمؤونتهما إلى أن كان ذات مساء وقد شرعا فى الخروج من المقبرة فأحس بهما أحد الحراس عند اقترابهما من الباب فحسبهما من الجن ، وانطلق يعدو ويصرخ حتى تجمع باقى الحرس يهدئون روعه ويستفسرون منه عما حدث وهو يشير إلى المقبرة ويردد « الأرواح الخبيثة . . الأرواح الخبيثة . . النجدة النجدة . . » واتجه الجنود ناحية المقبرة فرأوا فى الأفق شبح الأخوين يعدوان .

أبلغ الحادث للقائد الذى أبلغه بدوره للملكة فاستشاطت غضباً وتوعدت اللصوص بالويل والثبور وضوعفت الحراسة على المقبرة وجدت الشرطة فى أثر الجناة بضعة أيام دون جدوى .

ومما زاد فى غضب الملكة أن اللصوص عاودوا السطو على المقبرة فى غفلة من الحراس مرات أخرى بعد ذلك فأمرت أن ينصب شرك من الحديد داخل غرفة الكنز للقبض على الجانى متلبساً بجريمته .

وأقبل الأخوان ذات مساء وهما لا يدريان ما أعدت الملكة

لهما ودخلا إلى المقبرة وتدلى تيتا إلى غرفة الكنز لكنه ما كاد يصل إلى أرض الغرفة حتى أطبق عليه الشرك ولم يفلته وحاول هيروتانف عبثاً أن يخلصه من الشرك وأحس بالخطر يقترب منه دقيقة بعد أخرى وهم أن يخرج بعد أن ودع أخاه والدموع حائرة فى عينيه عندما ناداه تيتا أن (عد إلىّ) فلما عاد إلى فتحة الغرفة توسل إليه تيتا كى يرفعه إلى أعلا قليلا ويقطع رأسه حتى لا تشى الرأس بالشريك فقال هيروتانف :

— كيف سولت لك نفسك أن تطلب منى هذا الطلب ؟

— أخى .. ليبقى أحدنا

— ظننتك تطلب منى البقاء إلى جانبك فنلقى مصيراً واحداً .

— وما الفائدة يا أخى ؟ إن بقاءك فيه بعض عزاء لأمنا المسكينة .. وقد تستطيع يوماً أن توارى جسدى فى مرقد أمين تسكن إليه روحى

— تيتا .. أأقطع رأس أخى توأم نفسى ورفيق حياتى ؟

— من أجل كل هذا أستحلفك بالآلهة جميعاً أن تفعل

— إن قلبى يأبى والمروءة ... وكيف ألقى أمى ؟ هذا مستحيل

— بالله أسرع ولا تتأخر .. إن الخطر يحيط بك وكل لحظة تمر تقربك من الشر .. أرجوك .. أتوسل إليك

— أعفنى أخى ...

— بحق أبينا العزيز والإلـه الأعظم رع
— لقد حلفت بعظيم وتوسلت بعزيز
— إذن عجل حتى تكون لأمى العزاء

وانصرف هيروتاتف برأس أخيه والحزن يكاديقتله والرزء يضنيه وهناك بعيداً فى أحد الكهوف بالجبل جلس لا يدرى كيف يعود إلى أمه ولا بأى عذر يلقاها ...

عندما أشرقت شمس الصبح التالى لمح على البعد كهنة الكرنك مقبلين على مقبرة الملك ورآهم بعد قليل يخرجون بجثة أخيه ويركبون الزورق عائدين بها إلى طيبة ..

وعرضت الجثة فى المعبد وانطلق المنادى فى أنحاء المدينة ينادى « من له ابن غائب أو قريب لم يعد فليعاين الجثة الموجودة فى المعبد » لكن مرت الأيام ولم يتعرف أحد على الجثة ليطالب إستلامها فاستدعت الملكة رئيس الكهنة تشاوره فى الأمر فقال لها : إن شريك هذا اللص شديد الذكاء

— ما فى ذلك شك ...

— ومن الحكمة يامولاتى أن تنتفعى بمثل هذه الموهبة بعد إصلاح صاحبها

— وكيف ؟

— أعطيه الأمان ليظهر

ـ الرأى ما رأيت فافعل هذا بإذنى .

وانطلق المنادى فى المدينة يعلن أمان الملكة لصاحب الجثة فكاد هيروتاتف أن يطير فرحاً وذهب إلى المعبد ليتسلم الجثة بغية إجراء مراسم الدفن والتكريم للراحل العزيز لكنه بدلاً من أن يتسلم الجثة اقتيد إلى الملكة التى أمرت بمثوله أمامها فوراً وما أن رأته حتى بادرته بالسؤال :

ـ ما اسمك ؟

ـ هيروتاتف .

ـ وأبوك ؟

ـ زينون رئيس البنائين .

ـ وما الذى حملك على فعلتك النكراء أيها التعس ؟

ـ الجوع يا مولاتى .

ـ كيف تجوع وأنت شاب سليم البنيان ؟

ـ مولاتى ان أحداً لا يقبل أن يستخدمنى خشية أن يلحقه غضبك بعد أن علم الناس بقصة أبى .

ـ يا لهم من جبناء .. هيروتاتف لقد عفوت عنك ومن الغد ستقوم فى القصر بعمل أبيك ... لقد كان أبوك بطلا كريماً دافع عن عقيدته وأرجو أن تكون مثل أبيك .

وهوى هيروتاتف إلى الأرض ساجداً للملكة شكراً .

جمال الحب . .

كم ظلموك أيها الحب
من قالوا أن مسراتك . .
تشوبها الآلام دائماً
وحلاوة أنعمك
ممزوجة بالمرارة . .
وما الوجود بغير الحب
الذى يفتح الأنفس
على كل ألوان الجمال
فترى العين جمال الطبيعة
وتستعذب الأنف عبير الزهرة
وتستهوى الأذن ألحان الجمال
فيردد اللسان والقلب أناشيده العذاب
إنك أنت أيها الحب
الذى يجعل الكون كله للمحبين
أنشودة من الجمال
إنك أنت الجمال
وموقظ الجمال فى النفوس

obeikandl.com

ونيت جديدة

عائدة

ذلك منذ عامين وكانت الليلة ليلة رأس السنة وقد انتحيت ناحية بعيدة عن الازدحام فى أحد المراقص المتواضعة وقد جلست أمامى عائدة هذه الفتاة الشقراء الجميلة البسيطة المظهر والزينة الصريحة القول صراحة مظهرها الصادقة العاطفة . صدق حديثها ومخبرها . . . وأخذت دقات الساعات تنساب إلينا من كل ناحية . . . ساعة المرقص . . . ساعة الكنيسة المجاورة له وساعة مصنع التريكو القريب منا كلها كانت تعلن انقضاء عام من حياتنا طويت صفحته بما فيها من ذكريات وحوادث وما اشتملت عليه من آلام وأفراح . . . ومولد عام جديد لست أدرى ماذا سيكون من أمره ولا ما سنلاقى فيه غير أننا نستقبله بين صيحات السكارى وضحكات العذارى ومرح المحتفين وأنغام الجاز وأصوات المنشدين وكنت أدفع عن نفسى ما تزاحم عليها من ذكريات مثل هذه الليلة لأعوام خلت وخيل إلىّ أن الذكريات ستغلبنى على أمرى وتسلبنى ما توجبه علىّ الليلة من حسن استقبال وجميل ترحاب فالتفت إلى رفيقتى وقلت لها : عائدة ألا ترين أن الموسيقى تدعونا للرقص هيا يا عائدة

نحيي العام الجديد .

ـــ حسناً .. لكن حذار .

ـــ حذار ماذا ! ؟

ـــ إياك أن تغمض عينيك .. كفى كفى لن أقبل أن أكون خيالا لامرأة أخرى بين ذراعيك ..

ـــ وكيف كان ذلك ! ؟

ـــ لا أعرف .. ! لو أغمضت عينيك الحالمتين فستجد نفسك ترقص منفرداً ...

ـــ لا تخشى بأسا . . فسترين عينى محملقتين دوماً ...

ـــ آه لو عرفت من هى . . . آه لو عرفتها إذن لعلمت كيف أحاربها وأهزمها .. لكن كيف أستطيع محاربة مخلوق لم أره قط ..

ـــ عائدة .. إن الليلة بدء عام جديد وليس هذا ما نستقبل به مطلع عامنا ..

وكنا قد أصبحنا وسط الراقصين ولا أذكر أن عينى أغمضتا فى تلك الليلة البعيدة غير أنى لم أستطع أن أذود عن خيالى لحظة طيف ثريا وهذا ما أذكره جيدا .

أجل ثريا المرأة الأولى التى أثرت فى حياتى وكان لشخصيتها أثر بعيد .

لا أنكر أنى عرفت قبلها كثيرات من النساء لكنى نسيتهن

أو لم يبق لهن فى مخيلتى سوى صور باهتة هزيلة لا تهتز لها نفسى ولا يتحرك لها قلبى أما هذه فصوتها ما زال يدوى صداه فى أذنى وصورتها ما برحت ماثلة فى خيالى كأنى تركتها بالأمس القريب وحركاتها ما زالت جميعا محفورة فى ذهنى تتمثل فى مخيلتى متى شاءت وبغير ميعاد .

إنى لا زلت أذكر يوم دفعت باب غرفتى فى « مجلة . . . » حيث أعمل فى تحرير بعض الأبواب ..

رأيت أمامى فجأة مخلوقا غريبا او بالأحرى فتاة فى العشرين تقريباً يحيطها الغموض وتبدو على حركاتها الأرستوقراطية البغيضة تتقدم إلى فى هيئة السيد الآمر لكنها بدأت تخاطبنى بصوت بعيد الغور قوى السيطرة عميق النفاذ رغم خفوته حتى انه ليحكى الهمس وفى نبرة حلوة جميلة الوقع فى الآذان وبلهجة مهذبة رقيقة وقالت لى :

ـ حضرتك الأستاذ جمال عدلى ؟

ـ نعم ..

ـ أنا ثريا جاد الله ..

ـ تشرفنا يا هانم .. تفضلى .. استريحى

ـ طبعاً تعرف ان المجلة تكتب عنى بعض الأحيان فى باب الاجتماعيات ..

— صحيح ..

— أنا فى الواقع أتألم كثيرا لمثل هذا التدخل فى الشخصيات ومن المؤلم أكثر أن المجلة نوهت غير مرة بما أصاب والدى من خسائر فى هذه الأيام .

— يا آنستى إنى لا أشرف على تحرير هذا الباب ويمكنك مقابلة هذا المحرر وابلاغه رغبتك وما أظنه سيتحدث عنكم لو أبديت له هذه الرغبة ..

— أنا لا أريد لقاءه لأنى أشعر أن أمثال هذا المحرر يلذ لهم التشهير بالناس فلو أبديت له مثل هذه الرغبة ربما أمعن هو فى الكتابة عن أسرتى .

— لا أظن ذلك . .

— بل هذا هو الواقع .. إنما أنا قصدت إلى لقائك لأنى أعرف عنك صدق الأسلوب والترفع بكتاباتك عن مثل هذا الصغار ..

— أشكرك على هذا الإطراء الذى لا أستحقه

— لم أقصد إطراء بل أنا أقرر حقيقة وأملى فيك كبير أن تعمل على عدم تعرض زميلك لما يمسنى أو يمس أسرتنا ويكفينا ما نلاقى من زماننا

وفى الواقع أن هذه الفتاة ما انتهت من حديثها معى حتى شعرت

نحوها باحترام عميق بل وإعجاب لما لاحظته فى حديثها من تهذيب وتفكير سليم وما كنت أجهل أسرة « جاد الله » وما كان أحد يجهل ما حاق بعميدها من خسائر فادحة أثر هذا الهبوط العام فى الأسعار الذى أصاب الأسواق فى أزمة سنة ١٩٣٠ العالمية وما كانت تنحدر إليه هذه العائلة من فقر مخيف

وعدتها يومئذ ببذل كل ما فى جهدى لحمل زميلى على الكف عن التعرض لأسمها أو أسم أسرتها بأية إشارة محاولا تحقيق ما وعدت فى مروءة .

وانقضى بعد ذلك شهران كدت أنسى هذا الحادث إلى أن كنت جالسا ذات يوم وإذا بها تتحدث إلى تليفونيا تدعونى لحضور حفلة رأس السنة فى فندق مينا هاوس

وكان هناك أسبوع على الميعاد ولم يكن لدى ملابس للسهرة فحاولت أن أعتذر بشتى الأعذار ولكنها أصرت على حضورى وقالت « إن أبى يرجوك ويلح فى الرجاء أن تحضر ليقوم نحوك بواجب الشكر »

ولم أر مفرا من إجابة هذه الدعوة والإسراع فى شراء ملابس السهرة حتى أستطيع الذهاب إلى هذا الميعاد ، وفى مساء ذلك اليوم استطعت بشق الأنفس أن أعد ملابسى كاملة وما كادت الساعة تبلغ التاسعة مساء حتى كنت عند مينا هاوس فى موقف

تردد بين إحجام وإقدام .. تذهلنى الأنوار التى تغشى الفندق من كل جانب وتملأنى عظمة المكان رهبة وما كان لى عهد بمثل هذه الحفلات وتقاليدها ، ولا هذه الأماكن وآدابها ولست أدرى إلى أين أتجه ولا أين أعثر بمضيفتى ولا أعرف بأية تحية أبدؤها ولا بأى كلام أخاطبها

وتزاحمت الأفكار فى رأسى وتكاثرت الهواجس بمخيلتى حتى كدت أن أعود أدراجى خشية أن تبدر منى بادرة تدعو إلى سخرية الحاضرين فأسىء إلى نفسى ، وإلى مضيفتى من حيث لا أدرى لكنى أخيراً تشجعت ومضيت مخترقاً الحديقة وما كدت اجتاز باب البهو حتى رأيت ثريا تقبل نحوى مسرعة باسطة إلىّ يدها مرحبة وجذبتنى من ساعدى إلى حيث يجلس رجل بدت عليه مخايل العظمة والوقار واكتسى وجهه بغمامة من حزن دفين شارد النظرات سادراً عن الناس سابحاً فى لجة من التأملات والأفكار صاحت : بابا .. أقدم لك الأستاذ جمال عدلى .. صاحب الفضل الكبير

ـ تشرفنا يا أستاذ .

ـ حفظكم الله ..

ـ فى الواقع أنا مدين لك يا أستاذ .

ـ أستغفر الله .. أنا لم أفعل شيئا قط وهذا مايحيرنى فى الأمر .

ـ وكيف لا وقد منعت زميلك من الخوض فى شئونى .

ـ أنا لما حدثتنى الآنسة ثريا رجوته ألا يتعرض لما يتعلق بكم لأن هذه رغبتكم . .

وطال بنا الحديث وتفرع إلى مواضيع شتى وكانت موسيقى الجاز لا تنى عن العمل والراقصون والراقصات يستجيبون لرقصاتها المختلفة فى حماس وخفة ومرح وسرور وكانت الحماسة ترتفع بمرور الوقت وحرارة الرقص تتزايد والأجسام تزداد التصاقا والرءوس اقترابا وكانت ثريا تطيل النظر إلى حلقة الرقص وإلىّ وما كنت لأجهل معنى نظراتها لكنى كنت أتغاضى عنها متجاهلا أمرها لجهلى بالرقص وفنونه وكنت أتشاغل بالحديث مع أبيها خشية حرج يصيبنى من جراء هذا الجهل وفجأة قطعت علينا الحديث بسؤال عجيب وجهته إلىّ وما كنت أنتظره وكدت أذوب خجلا ويرتج على لكنها كانت لبقة فى تدارك الأمر سألتنى :

ـ ألا تحب الرقص يا أستاذ جمال ؟

ـ لا .. إنما لم أتعلمه .

ـ إذن ألا ترى أن نخرج إلى « التراس » لأنى أكاد أختنق من هذا الجو المسمم . ألا تسمح يابابا لنا بذلك ! ؟

واتجهنا إلى خارج البهو فهمست فى أذنها ونحن نقترب من الباب : ألا تعلمى أن الجو قارس البرد فى الخارج وقد يصيبك زكام

ان برد إذا مكثت فى ذلك الجو .

ـــ لا .. لن يصيبنا برد . بل سنتمتع بهواء نقى صحى إنى لأكاد أختنق فى هذا المكان .

وولجنا الباب لنلتقى بريح شديدة البرودة تفادتها بالإحتماء فى ظهرى ثم سارت إلى جوارى ملتصقة بى كأنها تحتمى بى من هذا القر النازل وبعد برهة طويلة انقضت لم يتكلم كلانا فيها كلمة سألتنى بصوت خافت : لم لا تتعلم الرقص يا أستاذ ! ؟

ـــ يخيل لى أن وقتى لا يسمح بذلك .

ـــ ألا يتسع وقتك لساعة ... أو نصف ساعة فى اليوم تتعلم فيها الرقص .

ـــ قد يكون لدى ما هو أهم من الرقص لأنفق فيه هذا الوقت .

ـــ لا بد للإنسان من الراحة أو الرياضة والرقص نوع من الرياضة المستحبة .

ـــ ربما كان ذلك

ـــ أرجوك .. تعلم الرقص لأنى أريد أن أراقصك ...

ـــ سأحاول ..

ـــ عدنى بذلك

ـــ أعدك ... لكن أظن من الأنسب أن نعود لصحبة

والدك فقد تركناه وحيداً .

— أتتعجل العودة ؟

— لا سيما والبرد قارس وأخشى أن يصيبك بسوء .

— حسناً . . . كما تشاء

ثريا . . كانت امرأة فذة لها شخصية جبارة استطاعت بقوة شخصيتها أن تطغى على كل أثر لفتاة فى قلبى أو فى حياتى ولم يبق لى ذكر إلا هى ولم يعد لقلبى نجوى سواها . . . ولم يكن هناك لفكرى شغل عداها . . . كانت تمتاز بكبرياء عنيفة وعزة نفس شامخة تستتر وراء ستار مهلهل من التواضع الجميل فى غير استكانة ولا خضوع لعاديات الدهر وعوادى الزمن . كانت جبارة تناضل لآخر نسمة فى حياتها عما تعتقد أنه حق . . . صلبة فى نضالها صلابتها فى نضال الزمن لا تلين للحادثات ولا تطأطىء الرأس لعصف الأعاصير . . . أنيقة فى حديثها أناقتها فى ملبسها التى لا تبارى لها وجه صبوح جميل الطلعة وشعر فاحم ناعم أرسلته على ظهرها فى فوضى هى الجمال والتناسق وقوام رشيق جملته بالرياضة .

سعدت بالقرب منها عامين كاملين كانت خلالها محور حياتى ومحط آمالى تغيرت نظرتى إلى الدنيا بعد أن عرفتها من النقيض إلى النقيض كنت لا أرى للحياة معنى ولا لوجودى فائدة

أو لزوم ولا للكفاحى فى معترك الحياة غاية أرمى إليها بل كنت أحياناً أفكر فى الموت ويخيل إلى أن السعادة فيه .

لكنها .. وأنا أعترف بذلك نفخت فىّ من روحها بل كانت لى وحياً وكانت لى إلهاماً وكانت لى قوة روحية هائلة فهى تتلقى نتاجى بالنقد المخلص والتوجيه الصحيح وهى تتولانى بالعطف والتشجيع وهى عزائى وأنسى إذا حزب الأمر واشتد بى الكرب فى يوم من الأيام ... هى قد أدركت خواطرى ودرست نفسى ففهمت عنى فكانت لى خير عون وكانت لى خير رفيق وأصبحت فخوراً بصحبتها مكرساً حياتى لسعادتها ووجودى للكفاح فى سبيل الكمال الفنى كيما تستطيع أن تفخر برفقتى كما أفخر بصحبتها .

وهكذا أصبحت أجد لحياتى غاية ولوجودى فائدة ولكفاحى هدف .. كل ذلك لها ومن أجلها وكل ذلك من أجل نفسى ومن أجل سعادتنا

غير أن ما كان يكدر صفو هذه السعادة التى غمرتنى أننى كلما حاولت أن أتحدث إليها فى أمر زواجنا أعرضت عن هذا الحديث وطلبت إلى أرجائه وكنت أسكت على مضض خوف أن يكون فى إصرارى نهاية هذه السعادة التى أنعم بها والتمتع بصداقتها ورفقتها إلى أن اعتزمت فى أحد أيام يوليه سنة ١٩٣٣ السفر

لقضاء شهرين من الصيف فى رأس البر والتقينا فى الليلة السابقة لرحيلها « بمينا هاوس » حيث التقينا لأول مرة وخرجنا متجهين صوب الأهرام نمشى الهوينا وقد التف ساعدى حول خصرها ومالت على بجسمها الغض النضير وكنت أميل برأسى نحوها بين آن وآخر فأملأ رئتى بتلك الرائحة الجميلة المنبعثة من شعرها الفاتن حتى خيل الى أننى سكران فى نشوة من الحب بل كانت هذه هى الحقيقة .. وكانت كل حواسى مخدرة بخمر الحب وعقلى فى غمرة من هذا الشعور الجميل الذى أنسانى كل ما حولى بل وما فى العالم كله وسبح ذهنى فى آفاق من السعادة يشيد قصور الآمال وينشىء جميل الأحلام وهبت نسمات رطبة عليلة من الصحراء أعادت إلىّ بعض شعورى وأعادت إلى عقلى بعض تفكيره فعدت أفكر فى السبيل إلى تحقيق هذه الأمانى .. وهل هناك من سبيل سوى أن أقترن بمعبودتى الحبيبة وسألتها : ثريا .. متى نعلن خطبتنا ؟!

ـــ أو عجلان أنت ؟

ـــ وكيف لا ؟ فقد انقضى عامان من مولد حبنا ونريد أن نتوج هذا الحب بذلك التاج المقدس .

ـــ أواثق أنت أن ما تريد هو الزواج ؟!

ـــ وكيف لا ؟ عامان كافيان للتفكير والروية .

ـــ إذن لننتظر حتى أعود من المصيف

— سنعقد قراننا إذن عند عودتك .

— سأفكر .

وشعرت بألم بالغ لهذه الإجابة بل كدت أصعق فى مكانى وكادت كل صورة جميلة لهذا الحب وهذه السعادة أن تمسخ للتو واللحظة لكنى تغلبت على هذا البركان المنذر وقلت لها : فكرى إذن جيداً يا ثريا . إنهما شهران وكافيان جداً لتنهى إلى رأيك بصراحة .

وانقضى شهران لكنها لم تعد ولم تكتب لى خطاباً واحداً من يوم رحيلها وفى صباح أحد الأيام قرأت فى جريدة الأهرام نبأ عقد قرانها على الثرى المعروف حسين بك فهمى فلم أستطع أن أصدق النبأ وما كان لى هذا بعد كل ذلك الحب العميق والصداقة المتينة والفهم المتبادل الوطيد والعلاقة القوية التى دامت عامين فتحريت عن الأمر فعلمت أنه حق وأن زواجها قد تم .

كانت الضربة قوية والصدمة أليمة اهتز لها كيانى وزلزلت وجودى وبت لا أرى فى يقظتى ونومى وأى نوم هو إنه اضطجاع اليقظة خير منه ونوم متقطع لسويعات قليلة أقوم بعدها أشد تعباً وأكثر ألماً ... بت لا أرى أمامى سوى صورتها ولا أفكر إلا فى هذا الغدر الآثم .

ولم أكن لأسيغ أنها غدرت بى أو خانت حبى لها بل كنت

أكدح ذهنى لأصل إلى تعليل هذا الزواج .

إنى أعتقد وأؤمن أن ثريا ليست بالفتاة التى تباع بمال وليست بالشخصية التى تقهر على هذا الزواج الذى لا ترتضيه ؟ فما الذى حملها على ذلك ! ؟ هل أحبت حسين فهمى وهو يكبرها بثلاثين عاماً ؟ إنى لا أكاد أصدق .

وصرت كلما إزددت تفكيراً فى الأمر إزداد أمامى تعقيداً وبرحت بى آلام قلبى وأمضتنى هذه الفجيعة الأليمة التى منيت بها فى حبى فحاولت الانصراف عن هذا التفكير بالإغراق فى العمل والتوسل بمختلف وسائل التسلية للترويح عن نفسى .

وعاونى على أمرى قوة عظيمة للنسيان وهبنى الله إياها وقوة إرادة تستطيع أن تتغلب على نزعات النفس وأهوائها عند الضرورة لكن رغم هذا فقد كانت ذكرى هذا الحب إذا ما عاودتنى فلها من القوة ما يقض مضجعى وما يؤرق عينى وما يدمى جراح قلبى المسكين ... قلبى الذى نعم بسعادة هذا الحب زمناً .

انقضى عام على هذا الزواج أو أكثر وأفلحت فى تجنب ذكرها وذكرى غرامى بها وقد كان جميلا من زميلى محرر الاجتماعيات أن أسقط من بابه كل ما يتعلق بها أو بزوجها حتى لا يكون هناك ما يدعو إلى اتصال بين المجلة وبينها إلا أنى فوجئت

فى يوم وأنا أرفع سماعة التليفون بصوتها الساحر ينساب إلى أذنى فى جرسه الشجى وتوقيعه الملائكى البديع فذهلت لحظة تمالكت بعدها شعورى وقلت : نعم .

— الأستاذ جمال ؟

— نعم يا أفندم .

— نهارك سعيد يا أستاذ .

— نهارك سعيد يا أفندم .

— أفندم أظنها أعجمية يا أستاذ .

— نعم يا هانم .

— كأنك لم تأت بجديد على أية حال لا أرى هناك داعيا لالتزام الرسميات إلى هذا الحد أنسيتنى يا أستاذ ؟

— أستغفر الله أنسى ثريا هانم ! ؟

— إذن أرجوك أن تقبل دعوتى للغداء فى منزلى غدا سنكون أنا وزوجى فى انتظارك

— وبأية مناسبة هذه الدعوة ؟

— سيكون لدينا ثلاثة من كبار تجار الأسكندرية

— وما دخلى وهذا ؟!

— أنهم ينوون تأسيس شركة مساهمة وربما عرضوا عليك الاشراف على قسم الدعاية والاعلان بالشركة

— إنى قانع بعملى هذا ولا أرغب فى مزيد من المال
— لكنى أريد أن أراك يا أستاذ جمال
— ...
— أرجوك .. اقبل هذه الدعوة
— سأحضر ..
— ألم تعرف فتاة جديدة لتحضرها معك ؟
— ومالزوم ذلك أيضا ..؟
— أفضل أن تكون معك صديقتك
— وهل هذا يرضيك ؟!
— إنه أنسب
— سأحاول .
— أبذل أكبر جهد ممكن لتكون لك رفيقة
— سأفعل

وضعت سماعة التليفون وسبحت فى بحور من التأملات لهذه الدعوة الغريبة بغير ميعاد سابق ولا تمهيد وكأنى ألعوبة فى يدها إن شاءت وصلت ما بينها وبينى ، وإن شاءت نبذتنى ، وكيف أقبل كرجل أن تمتهن كرامتى إلى هذا الحد ، لا لن ألبى هذه الدعوة .. لكنى وعدت بالحضور فكيف أخلف وعدى !؟ الاعتذار ممكن ، لكن هى ، ثريا فتاة أحلامى وحلمى

الجميل . هى بعينها وجمالها وجسمها وصوتها سأحظى برؤيتها أمام عينى مرة أخرى وستلمس يدى يدها وستضغط أصابعى أصابعها وستلتقى عيناى بعينيها . أى حلم جميل سيتحقق بعد هذه الفترة من الزمن ! أى فرصة ذهبية ستتاح لى بعد هذا اليأس ، إنها فرصة ثمينة لا يجب أن أدعها تفلت من يدى .. سأذهب وسأقابل ثريا ..

والتقيت فى تلك الليلة بعائدة ورجوتها أن تحضر معى هذا الغداء. وأفهمتها أن تحاول الظهور بالمظهر اللائق بصديقتى أو خطيبتى فى هذا الوسط الارستوقراطى الذى سيضمنا وألا يبدر منها شىء يدعو إلى التهامس بينهم والسخرية منا وكان ذلك على سبيل الاستيثاق وزيادة فى الاحتياط لأن عائدة فتاة لبقة حسنة التصرف يمكن الاعتماد عليها والثقة بمقدرتها ولم تتأخر عائدة فى تلبية دعوتى ووعدى بما طلبت منها .

وذهبنا فى اليوم التالى فى موعدنا فلم نجد سوى ثريا بالمنزل فقدمت لها صديقتى عائدة وبعد فترة قصيرة وصل زوجها وضيوفه فقدمتنى لهم وقدمت عائدة على أنها خطيبتى .

وقد لاحظت أنه لم تكد تنقضى لحظات قليلة على وصولنا حتى تبدل مرح عائدة بتجهم وظلت صامتة لا تتكلم إلا عند اللزوم فقط حتى غادرنا الحفل وما كدنا نأخذ مقاعدنا فى (التاكسى) حتى جذبتها من ذراعها بشدة وأنا أسألها :

ـ ما سبب هذه الحماقة التى ظهرت بها اليوم ؟
ـ لم لم تخبرنى أنك ذاهب للقائها ؟
ـ من ؟
ـ حبيبتك التى تحلم بها أبدا .
ـ فى الواقع يا عائدة كنت أخشى أن ترفضى مرافقتى وكان يهمنى أن تكونى إلى جوارى
ـ لو أنك صارحتنى بذلك لكنت استعددت لهذا اللقاء
ـ لقد انقضى كل شىء وذهب
ـ لا .. لا تخش بأسا أعدك أنى سأكون مرحة إلى أقصى حد ، سأكون سيدة الاجتماع
ـ وهل هناك مرة ثانية ؟
ـ ستكون هناك مرات ومرات
ـ وما الذى جعلك تعتقدين هذا ؟
ـ لأنك لا يزال لك مكان فى حياتها
ـ لا أظن
ـ وكيف لا .. ألا تحبها ؟
ـ لقد أحبتها
ـ هى ما زالت تحبك
ـ لكنها تزوجت بمحض إرادتها رجلا غيرى فبماذا

تعللين ذلك ؟

ـــ لست أدرى ، إنما لعلاقتكم بقية

وهكذا التقت عائدة بغريمتها على غير ميعاد سابق وبدون سبق معرفة فعرفتها بغريزة المرأة التى تدرك بقوتها العجيبة وتكشف عن مواطن الحب والبغض وأسرار النظرات وتستخرج للكلمات معانى قد لا تخطر على بال رجل قط .

عرفتها وتنبأت ببقية لعلاقتنا سرعان ما بدأناها إذ لم يكد ينقضى أسبوع على هذا الغداء حتى دعانا زوجها لتناول العشاء فى جروبى ولم أتردد هذه المرة فى قبول الدعوة ولم أفهم السر على وجه التحقيق لقبولى هذه الدعوة أهو شغفى بأن أرى مايسفر عنه لقاء عائدة لثريا بعد أن عرفتها أم كان ذلك استجابة لنداء قلبى الذى عاوده شغفه بثريا .

ولقد ذهبنا لهذا العشاء وكانت عائدة أكثرنا حديثاً ومرحا وأعظمنا ظرفا وطغت شخصيتها على الاجتماع وآثرت حسين بك فهمى بكثير من ملاطفاتها حتى إنى أخذنى العجب لهذا الانقلاب الغريب الذى لم أستطع فهمه ولم أستطع إلا إبداء إعجابى الكبير بها همساً فى أذنها ونحن فى طريق عودتنا وشكرها على ما بذلت من مجهود فى إحياء جلستنا وإضفاء هذا الجو المرح على سهرتنا.

وتتابعت دعوات العشاء لى مع عائدة والحفلات الراقصة

الخاصة منها والعامة وكنت ألحظ وثريا تبادى حسين بك فى مغازلة عائدة وكنت لا أكترث كثيراً لهذا رغم أنى كنت ألحظ امتعاض ثريا من هذه العلاقة إذ كنت فى شغل شاغل عنهما أنعم فى نعيم قربى من ثريا ولو بغير أمل .. تيقنت أنى ما زلت أحبها وأحبها حباً قوياً جارفاً بل خيل إلىّ أن هذا الحب لم يكن من قبل فى مثل هذا العنف الذى كان يتزايد على مر الأيام ويقوى شعلته فى قلبى أنها أصبحت محرمة على محللة لغيرى .

وفى ليلة ذكرى قرانهما أقاما حفلة ساهرة بمنزلها ودعينا إليها كالمعتاد وكانت عائدة تراقص حسين بك حينما شعرت بصداع شديد فرافقتها إلى إحدى الغرف الداخلية للمنزل وبعد أن انتهت الرقصة ذهبت ثريا للسؤال عن ضيفتها فوجدتها مستلقية على « شيزلونج » وقد انحنى زوجها عليها يقبلها وعند ما لمحتها عائدة ندت عنها صرخة حادة هرولت أنا على أثرها لأتبين ما حدث فراعنى منظرها وهى مستلقية على الكرسى فى تراخى وقد وقف حسين بك إلى جوارها وزوجه تكيل له ما شاءت من لاذع القول ومؤلم التقريع فجذبتها من ذراعها ونبهتها إلى وجوب عودتها حتى لا يستاء مدعووها وترجىء هذا إلى ما بعد انصراف الناس .

وفى الوقع شعرت بكثير من السخط والحنق لما حدث من عائدة ولما تصورته من غدرها وخيانتها فلم أتمالك نفسى وعدت

إليها وصحت بها منفعلا « لعلك فخورة بما فعلت ! ؟ » وهالنى أن أراها تبتسم لى وهى تقول « حقاً إنى جد فخورة » .

فذهلت لهذه الإجابة وألجم لسانى فتركتها وانصرفت من فورى .

وبعد أسبوع تحدثت إلىّ ثريا تليفونياً وطلبت منى أن ألقاها فأسرعت للقائها فوجدتها تنتظرنى « بالصالون » وفى يدها ورقة ما كدت أجلس حتى قدمتها لى ففتحتها وأدهشنى أنها قسيمة طلاق : إذن فقد حكمت بالفراق .

ـ أجل . . وهل كنت تنتظر منى أن أعيش مع هذا النذل بعد أن تجرأ على خيانتى وياليتها خيانة فحسب بل وفى بيتى . . إن هذا فظيع . . فظيع وما كنت أتصوره قط .

ـ لكن ألم يكن الأجدر أن تتريثى قليلا . ! ؟

ـ وكيف كان يمكن التريث بعد هذا ! ؟

ـ لعلها كانت نزوة من نزوات الشيطان فى لحظة عابرة .

ـ لا يا أستاذ جمال إنك أكثر ذكاء من هذا .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أعنى إنك لا شك لاحظت علاقته بها من قبل هذا الحادث الوقح .

ـ لكن ليس جميلا هدم بيت بهذه السرعة .

— وهل يحزنك هذا ؟
— طبعاً لا يفرحنى تصدع رباط زوجى بحال .
— لكنى لم أكن موفقة فى هذا الزواج ... لم أكن سعيدة .
— أتمنى لك أن تكونى أسعد حظاً .
— ألا تهمك سعادتى ! ؟
— تهمنى ! ؟ إنها سعادتى أنا يا ثريا .
— أحقاً ما تقول ؟
— وهل تشكين فى هذا ؟
— أبداً ما شككت قط .

والتقت شفاهنا فى قبلة طويلة جددنا بها عهد حبنا وقضينا معاً سويعات سعيدة فى جو سحرى بديع قد تشبع بهذه العاطفة المقدسة التى طغت علينا فأنستنا أنفسنا وأنستنا العالم المحيط بنا وسبحنا فى أجواء من السعادة وفى سماوات من الأحلام والأمانى العذاب .

وجرؤنا فى ذلك اللقاء على أن نتحدث عن الزواج والارتباط بهذا الرباط المقدس حتى تكمل لنا أسباب السعادة لكن لمحة خاطفة بدرت من عينى على غير قصد نبهتنى إلى هذا المكان الذى يضمنا وما حواه من أثاث فاخر ومن خدم وما لبست صاحبته من ملبس بادى الفخامة ناطقاً بفحش ثمنه وإلى ما تقتضيه مثل

هذه المظاهر من نفقات لا يكفيها إيرادى المحدود فتململت فى جلستى وبدت الكآبة على وجهى فسألتنى فى لهفة عما ألم بى فقلت لها :

— ثريا .. أنت تعلمين بغير شك ضآلة مرتبى .

— وماذا فى ذلك ؟

— يخيل إلى أنى لن أستطيع أن أكون زوجاً كفؤاً لك .

— لا .. أرجوك لا تفكر هذا التفكير .

— إنى لن أستطيع أن أهىء لك هذا الجو الارستقراطى الذى تعيشين فيه ...

— لا تخش بأساً فعندى من الإيراد ما يسد بعض النفقات ..

— هل عزمت على العمل ؟

— كلا .. إنه دخلى الخاص .

فاطمأنت نفسى قليلا غير أنى شعرت فى تلك اللحظة بفاصل يباعد بينى وبينها أحسست أنها من طبقة غير الطبقة التى نشأت فيها وأصبحت منها وأنها تحيا حياة قد يكون من العسير على أن أجاريها فيها وأدركت بذكائها النادر ما يجول بخاطرى فجهدت أن تصرفنى عن هذا التفكير وعادت بى إلى ما كنت أحيا فيه من أحلام السعادة .

انقضى أكثر من شهرين على هذا اللقاء كنت أرشف خلالها

كؤوساً مترعة من السعادة وأنعم فى جنة أرضية مع حوائى لا يكدر سعادتنا مكدر ولا يقطع حبل هنائنا حدث من أحداث الزمان لا هين عما حولنا نمتع أنفسنا بكل وسيلة من وسائل المتاع وأول هذه الوسائل أنشودة الحب الأبدية التى لا تمل ولا تبلى ولم يكن يقلقنا فى هذه الفترة إلا لحظات نذكر فيها ما بقى من أيام نستطيع بعدها أن نكتب صك الخلود لهذه السعادة وأن نسجل لأنفسنا الهناء مدى ما بقى لنا من حياة وذلك بعقد قراننا الذى طال انتظارنا له وزاد بنا الشوق إليه .

ولم أر عائدة بعد تلك الليلة إلا أنها منذ أيام قلائل حضرت إلى مكتبى فسألتها :

— ماذا جاء بك إلى هنا ! ؟

— جئت للسؤال عنك .

— وهل هذا يستدعى أن تتركى عملك .

— لا .. اليوم ٣٠ ديسمبر وهو عطلة للجرد السنوى .

— حسناً إننى بخير .

— الحمد لله .

— وكيف حال حسين بك ألا ترينه ؟

— نادراً . غير إنى علمت أنه طلق زوجته ألا تراها ! ؟

— إنى أراها كثيراً .

— لعلها سعيدة بهذا الطلاق .
— إنى لأعجب أن تسعد سيدة بالطلاق وهدم بيتها .
— وهل كانت تبغى غير ذلك ! ؟
— إننى لا أكاد أفهمك يا عائدة !
— إنها لم تكن تريد سواك .
— إذن فمن حملها على هذا الزواج ؟
— لأنها سيدة من طبقة راقية وتود الاحتفاظ بمظهرها وقد رضى حسين بك أن يتنازل لها عن خمسين فداناً من أملاكه وبذلك تستطيع الآن الاحتفاظ بمكانتها وبكل ما تشتهى .
— جميل . جميل جداً . لكن كيف حالك مع حسين بك !! ؟
— أيها الأحمق ... ليس هناك ما يربطنى بحسين بك إنى قمت بما طلبت منى .. لقد طلبت منى أن أكون ظريفة فى مجلسهما ورأيت هذا النداء الصارخ فى عينيك وهذه اللهفة التى تعتريك لدى رؤيتك لها فازلت العقبة من طريقك .
— أشكرك يا عائدة . . أشكرك على نبلك .

وفى الليلة الثانية عند ما كنت أجلج باب أحد المراقص المتوسطة مع ثريا للاحتفال برأس السنة الجديدة شعرت للتو بتميزها بين سائر الجالسات فى لباسها وفى جلستها المتشامخة وارستقراطيتها البادية المتناسقة مع ردائها وزينتها المنسجمة مع

جمالها وحركاتها المتئدة .

وانتحينا ناحية بعيدة حول إحدى الموائد المنعزلة نوعا ما وقد اعتمدت باحدى يدى على المائدة بينما كانت الأخرى تعبث بطرف غطائها فى حركات عصبية وسبح ذهنى فى أفكار مؤلمة يستعيد هذه الكلمات التى ألقت بها إلىّ عائدة فى الأمس لكن ثريا أخرجتنى من أفكارى وقد أخذت يدى بين كفيها وهى تهمس إلىّ :

ـــ لم يبق لنا سوى أسبوع حتى يضمنا منزلنا يا جمال .

ـــ أجل إنه أسبوع إنما خبرينى أولا حتى لا يحدث بيننا أى شجار فيما بعد لا سيما وأنا لا أحب الشجار فى المنزل .

ـــ بماذا أخبرك ياحبيبى ؟

ـــ عن أبواب إيرادك الذى سيعاونك فى نفقاتك .

ـــ إنها أملاك خاصة بى . . ! ؟

ـــ ومن أين جاءتك ؟

ـــ جمال . . لاتؤلمنى .

ـــ أنا لا أؤلمك بل أريد الحق واليقين حتى لا يكون هناك مجال فيما بعد لوشاية واش أو سعاية خبيث .

ـــ إذا كان أبى قد حاق به الفقر وأضاع أمواله أفيحرم على الحق فى التمتع بالحياة ؟

ـــ أبداً ومن قال هذا ؟!

ـــ أنت لا تجهل أنى من يوم أن درجت فى هذه الدنيا وأنا أحيا هذه الحياة الباذخة ولقد رضى أبى أن ينفى نفسه فى الريف وكنت أستطيع ذلك أيضاً .. لكنى أحببتك يا جمال وأنت تقيم هنا بالقاهرة وما كنت لأستطيع أن أتزوجك وأختفى فى القاهرة وأنت تعلم مكانى من أوساطها .

ـــ فكان الحل أن تتزوجى حسين بك لتحتالى على أخذ أمواله لتنفقيها فى منزل رجل آخر !

ـــ لم أحتل على أحد بل هو عرض علىّ تلك الفدادين راضياً مسروراً . وقد أخلصت له ولم أخنه كما خان عهدى رغم الفارق البعيد بين سنى وسنه .

ـــ وهل تتصورين أن تنفق أموال هذا الرجل فى بيتى وهل تتخيلين أنى أرضى بهذا المخلوق الذى يضع الاعتبارات المادية فى المحل الأول من حياته لا لن أكون هذا الرجل قط .

ونزعت يدى من بين يديها هاتان اليدان اللذان كان لهما فعل السحر على نفسى إذا ما مستهما يدى بل تركتها وحدها وخرجت منطلقاً وأنا أكاد أتميز من الغيظ إن هذه المرأة لا تفكر إلا فى نفسها فحسب إنها أنانية أرادت المال لنفسها ونالته وأرادت أن ترضى ناحية أخرى من نواحى كبريائها بأن تتزوج شاباً قد يكون له

مستقبل وشهرة فيقرن اسمها باسمه كصاحبة فضل فى شهرته أو إلهاب حيويته وإنعاش عبقريته .

إن عائدة كاتبة الكريدى ليونيه الفقيرة التى تهول أمرها لأكرم نفساً وأنبل قلباً من هذه المرأة الراقية التى خلقت من طينة غير طينتنا إنى أستطيع أن أفهم عائدة وبساطتها إنما ثريا لغز صعب حله فأين عائدة الآن أين هى لأحيى معها عامنا الجديد لأستقبل معها دنيا جديدة بل هى دنياى القديمة وهذه الفترة التى عشتها إلى جوار ثريا ، لم تكن إلا حياة غريبة على" أحمد الله أن أنقذنى منها .

وقادتنى قدماى إلى منزلها فوجدتها تتأهب للنوم وقد دهشت لزيارتى فقلت لها :

ـــ أود أن تحيى هذه الليلة معى كما فعلنا منذ عامين .

ـــ وأين ثريا ؟

ـــ لم يعد لها مكان عندى . .

ـــ وهل تنوى أن تغمض عينيك وأنت تراقصنى .

ـــ إن عيناى لم تعد ترى غيرك ياعائدة إنك أكرم من عرفت .

ـــ أحقاً ما تقول أم تريد أن تسخر بى ؟

ـــ اصفحى عنى ياعائدة لقد كانت هناك غشاوة على عينى أو هو هذا البهرج الوهاج الذى ينبعث من هذه الأوساط الراقية قد

غشي عيني فلم أستطع أن أتبين حقيقة موضعي .. لم تكن ثريا لي ولم أكن لها إنها من طبقة أخرى غيرنا . .

— . . .

— عائدة هلمي نستقبل عامنا الجديد .

وبعد فترة قصيرة كنا نصغي في مرح عظيم إلى دقات ساعة المرقص المتواضع وساعة الكنيسة المجاورة له وساعة مصنع التريكو والتقت نظراتنا وتشابكت أيدينا وقد تذكرنا في هذه اللحظة شجارنا منذ عامين .

قصة واقعية :

ذات ليلة

كانت من ليالى فبراير الماضى وكانت قارسة البرد وقد أفرطت فى الشراب وامتدت بنا سهرة عيد ميلاد صديق حسنى إلى ما بعد الواحدة صباحا وخرجت من منزله فى الفجالة أتلفت على أى وسيلة من وسائل المواصلات توصلنى إلى منزلى فى حدائق شبرا وأنا لا تكاد ساقاى تقويان على حملى .

وما كدت أقترب من كوبرى شبرا حتى لمحت امرأة مقبلة فوقفت فى مكانى أترقبها وهى آتية حتى اقتربت منى فأخذت بجمالها الرائع . . . كانت ذات عينين زرقاوين فى مثل صفاء البحر زانتهما أهداب ذهبية طويلة . . . وأنف رومانى دقيق وفم قد أطبقت عليه شفتان تختلجان فى عصبية . . . وجسم متسق الأجزاء قد أسدلت عليه ملاءة لف أبرزت فتنته . . وبعض خصل ذهبية من شعر مموج كثيف بدت من تحت الملاءة فتنة للناظرين .

خيل إلى ساعتئذ أنها إحدى بنات الارستوقراط كانت فى حفلة تنكرية .. لكن لماذا تسير على قدميها كأبناء الصعاليك . . ؟

لعلها سائحة أمريكية مغرمة بالتقاليع أرادت أن تقضى سهرة حمراء فى زى (بنات البلد) فى مختلف علب الليل .

لكننى لم أتمالك نفسى فاقتربت منها وقد أحسست أنى أفقت قليلا من قوة (نوشادر) جمالها النفاذ وتأججت فى صدرى نيران الرغبة العارمة فقلت لها « إلى أين يا جميلتى فى مثل هذه الساعة ؟ » فأجابتنى وهى تغالب عبراتها : أى مكان . . . لست أدرى .

— يا سلام أنا طوع أمرك . . . هيا بنا ننعطف إلى داخل المحطة فنستقل سيارة .

— إنى آتية من المحطة منذ قليل .

— وما يمنع أن نعود إليها ؟

— لا أقصد ذلك . . إنما ألم تفعل معروفاً فى حياتك ؟ أعنى ألا تريد أن تسدى يداً كريمة إلى مخلوق بائس ؟

— بودى لو أستطيع لا سيما إذا كان هذا المخلوق فى مثل جمالك .

— إذن ألا تصغى إلى قليلا فتحدد موقفك منى على ضوء ما أقصه عليك .

— وما هى قصتك ؟

— إن لى زوجاً كهلا برمت بالحياة معه لغيرته الحمقاء التى

تنغص علىّ عيشى وتشدده معى فى كل شىء .. لقد رضيت بما فرضه علىّ من سجن بين أربعة جدران لكنه يأبى أن يقلع عن غيرته وخلقه أسباب النكد والشجار لأتفه الأشياء بل وللأوهام والخيالات ولما لم أعد أطيق هذه الحياة لا سيما بعد أن اعتدى علىّ بالضرب أمس تسللت فجر اليوم من المنزل وقصدت إلى بيت أبى فى منيا القمح فقابلتنى زوجته بالترحيب والبشاشة وانخدعت بما أبدت من شفقة وعطف وأفضيت إليها بشكواى لكنها عند ما عاد أبى من عمله ألّبته علىّ وأوغرت صدره فثار وطردنى من بيته وأمرنى بالعودة من حيث أتيت والمكث مع زوجى الذى يكرمنى ويفسح لى من صدره وينفق علىّ من فضله ولا يضن علىّ بمأكل ولا ملبس وكأن المأكل والملبس هما كل شىء فى الحياة . . . لقد صرخ فى وجهى « كفاية . . كفاية علىّ مصاريف أخيك . . . أنا لا أقدر على أكثر من ذلك . . . لقد ربيتك وأنفقت عليك ما فيه الكفاية . . . ثم إن الرجل لم يطردك من بيته ولم يفكر فى طلاقك ولم يقصر فى شئونك فلم لا تطيعينه . . . والله لا تبيتى فى بيتى هذا » .

وخرجت يا سيدى لا أدرى أين أذهب وظللت أجوب فى شوارع المدينة وعيناى لا تكفان عن الدمع لحظة وعند ما بلغت الساعة العاشرة مساء وجدتنى أستقل القطار دون وعى أو تفكير

إلى القاهرة لعل الله أن يريد بى خيراً أو يجعل لى مخرجا .

ومنذ أن هبطت أرض القاهرة وأنا حائرة فى أمرى كيف أستطيع العودة إلى زوجى وبأى عذر أبديه ؟ وكيف أقص عليه نبأ هربى وطرد أبى لى فيمعن فى امتهانى وتعذيبى ؟ وإلا فأى عذر أنتحله يبرر تركى البيت مع الفجر وعودتى بعد انتصاف الليل ؟ لقد فكرت فى الموت كثيراً .. وفى هؤلاء الناس الذين تدهمهم الترام والسيارات كل يوم ولعلهم يريدون الحياة .. لكن لم لا أكون أنا منهم وأنا قد سئمت الحياة ؟ وراودتنى نفسى على الانتحار لكنى جبنت .. وهو كفر بالله الرحيم » .

وأخذتنى الشهامة وعز علىّ أن يذل مثل هذا الجمال ويهون إلى هذا الحد فجذبتها من ذراعها وأنا أقول هيا بنا لنرى هذا الزوج الوغد ولننظر ما سيكون من أمره . ولكنها وقد أدركت ما أنا فيه من سكر تشبثت بذراعى وقد لاح أمامها خيط من الأمل لا تريد أن ينقطع ... إنه أمل فى النجاة فلتحاول أن تستفيد منه وتصلح من شأنه .

سألتنى « ماذا ستقول له ؟ وبأى صفة ستلقاه ؟ » فتوقفت فى مكانى برهة وقد فوجئت بالسؤال الذى لم أفكر فيه من قبل وبعد لأى سألتها بدورى : صحيح ماذا نقول له ؟

— إن لى شقيقاً يدعى ابراهيم طالب بجامعة اسكندرية لم يره

زوجى من قبل فلتكن أنت إبراهيم من الآن .

ـ وقد عدت بك لأصلح بينكما . .

ـ لا أكثر . . . فلا تشتبك معه فى حديث أو نقاش ولا تعتدى عليه بالكلام .

ـ لكن .

ـ لا . . . ليس لى مكان سوى بيته إلى أن يقضى الله أمراً . . أرجوك أن تكون معه رفيقاً وسأذكر لك هذا الجميل مدى حياتى .

ـ ليس هناك جميل ولا خلافه .

ـ خبرنى إذن من أنت ؟

ـ من أنا . . . أنا إبراهيم فإذا نجح إبراهيم فى الامتحان عرفت من هو بعد ذلك .

ـ صدقت فإن ذلك أفضل حتى لا أخطىء . . . على فكرة أنا أختك محاسن .

ـ محاسن . . . محاسن أخت إبراهيم هذا حسن يا محاسن هيا لنسرع إلى بيتك . . . أين يكون هذا البيت ؟

ـ فى البغاله . .

ـ إذن فلنسرع للحاق بسيارة .

وظلت السيارة تدور بنا فى شوارع وحوارى البغالة حتى

انتهت بنا إلى زقاق ضيق لم تستطع دخوله فترجلنا وسرنا حتى وقفنا بباب منزل صغير متداعى له عتبة عالية ارتقتها وأخذت تطرق الباب طرقاً عنيفاً .

وجعلت أنا اتأمل هذه الذراع اللطيفة الجميـــلة التى تعاود الطرق بين لحظة وأخرى وهذا القد الممشوق الواقف أمامى وأنا أعجب لحكمة الله وكيف قدر لهذا الجمال الرائع أن يقبر فى هذا المنزل المتهدم فى هذا الجحر القذر .

أخيراً وصل إلى سمعنا سعال شديد متصل أعقبه صوت أجش منكر يسأل عن الطارق فقالت له « أنا » ومضت فترة خيم فيها السكون العميق على المكان ثم انساب إلى أسماعنا صوت قبقاب خشبى ينزل الدرج فى نغمات رتيبة أزعجت هذا السكون ثم صوت (السقاطة) تفتح وينفرج البـاب فى حشرجة رهيبة عن شيخ كهل قارب الستين من عمره قد أرسل لحيتـه البيضاء تزين وجهه لم تبد عليـه الدهشة ولا الفرح ولا الغضب ، بل لم أستطع أن أتبين أى تجاوب أو أثر لهذا اللقاء المفـاجىء بعد منتصف الليل . لقد كان وجهه قناعاً غامضاً يخفى ما تنطوى عليه نفسه من مشاعر وأحاسيس . كل ما فعل أن أفسح لنا الطريق قائلا (تفضلا ..) فصعدت محاسن أمامى فى درجات ضيقة انتهت بنا إلى ردهة مظلمة لا يوجد بها من منافذ سوى فتحة مرتفعة

ضيقة على منور للبيت وفى أحد أركانها انحطت محاسن على الأرض وأطرقت برأسها حتى كادت تمس ركبتيها وجلست مع زوجها على وسادتين فوق الحصير غير بعيد منها .

كنت أنتظر أن يبدأنى الحديث وأنا على أحر من الجمر لا سيما والساعة قد قاربت الثانية صباحا وعلى أن أعود إلى شبرا من السيدة زينب لكنه أغرق فى الصمت وهو يسترجع ويحوقل بين الفينة والفينة حتى اضطررت أخيراً أن أبدأ الحديث قائلا : أنا إبراهيم .

ـــ أهلا وسهلا سى ابراهيم . . . انت شرفتنا . . فرصة سعيدة يا براهيم يا ابنى .

ـــ أنا أسعد يا عمى . . . محاسن أخطأت ولم يرض أبى عن فعلتها وقد أمرنى أن أحضر معها إليك فى نفس اليوم دون أن يسمح لها بالمبيت .

ـــ الشباب له حكمه يا براهيم .

ـــ أرجوك أن تصفح عنها .

ـــ من أجل خاطرك يا ابراهيم . . . هذه أول زيارة تشرفنى بها . . يا محاسن أعدى العشاء لأخيك .

ـــ لا والله . . . لقد تعشينا وبودى أن تأذن لى فى الانصراف لأنى مرتبط مع زملائى فى رحلة إلى الاقصر وقد

اعتزمنا المبيت الليلة فى بيت الطالبة فى الجيزة .

— لا يمكن . . .

— أرجوك أن تعفينى .

— هذا مستحيل . . . قسما بالله العظيم لابد من مبيتك الليلة معنا ولتنطلق فى الصباح الباكر .

وأسقط فى يدى وقد رأيت الغضب والتصميم فى لهجته وخفت أن يفتضح شأنى فأسلمت أمرى إلى الله يقضى فيه بما يشاء وعاد هو يأمرها : قومى يا محاسن نامى الليلة مع أخيك . . » وأخذ بيدى ودفعنى إلى حجرة جانبية وتبعتنى محاسن فى ذلة واستسلام وأغلق دوننا الباب وما كدت أراني وإياها وجهاً لوجه حتى طار ما بى من سكر وأفقت على الواقع الرهيب . . ماذا لو كانت هذه مؤامرة مدبرة للإيقاع بى وسلبى ما أملك أو تهديدى أو استكتابى أى إقرار أو تعهد يجعلنى تحت رحمة هذه العصابة الغادرة . . . ولعلها ليست إلا ممثلة بارعة من أفراد عصابة أشرار أجادت تمثيل دورها ورحت أنا ضحية جمالها وفتنتها . . وما الحيلة وكيف المفر ؟ عدت إلى الباب فأحكمت غلقه بالمفتاح ووجدت فى الحجرة كرسى من القش الغليظ جلست عليه خلف الباب بينما راحت هى تتجرد من ملابسها الخارجية لترتدى قميص نومها .

وكلما خلعت شيئاً من هذه الملابس إزداد سعار الشهوة فى جسدى واشتعلت نيرانها فى صدرى وصاح بى الشيطان « تأمل هذا الجمال . . هذه الفتنة . . أنها بين يديك خالصة لك . . مالك جبنت . . ياله من جمال بكر لم يعربد فيه أحد من قبل . . تأمل هذا الثدى النافر . . أنه ما زال محتفظاً بماء الشباب وقوته . . وهذا الجيد العاجى الأملس . . عجيب أمرك الليلة ؟ »

كم وددت أن أهتصرها بين ساعدى وأرشف شهد شفتيها وأرتوى من هذا الجمال فى ليلتى تلك لكن الخوف قد كبلنى فى مكانى وعقد لسانى .

أخيراً جلست على حافة السرير الحديدى ذى الأربع قوائم الموجود بالغرفة وقالت لى : ألا تنوى النوم ؟

ـ ما بى رغبة للنوم الليلة .

ـ لكنك ستتعب فى مجلسك هذا .

ـ لا . . لا داعى للنوم قط .

ـ أمصر أنت على البقاء فى مكانك ؟

ـ ربما ...

فاقتربت منى وألقت على بالغطاء الوحيد وتناولت هى ملاءتها فتغطت بها وراحت فى سبات عميق أما أنا فبت أترقب خائفاً مما سيحدث بعد ذلك وأخذت الدقائق تمضى على طوالا

والساعات أدهراً قاتلة مملة حتى انتصفت الرابعة صباحاً وانساب إلىّ صوت المؤذن الرخيم يترنم فى سكون الفجر من فوق مأذنة السيدة زينب بالمدائح النبوية والابتهالات الكريمة فأحسست شعوراً من الندم يغمر روحى وبنفسى تؤنبنى على اندفاعى وراء شهواتى وتدعونى إلى التوبة إلى الله تعالى حتى ينجينى مما أنا فيه من كرب ثم بشفتى تقطعان عهد التوبة عن هذا الغى وفجأة رأيت شعاع مصباح البترول « نمرة خمسة » يتحرك ... خارج الغرفة وطرق أذنى صوت القبقاب الرتيب على أرض الردهة ثم تساقط الماء فى طست نحاسى ثم وضوء الزوج الكهل الذى أعقبه طرقات حبات المسبحة والدعاء ثم وقع أقدامه على الدرج وسقاطة الباب الخارجى تفتح ثم يعاد إغلاق الباب وراءه . .

إذن فقد كنت فى ضيافة رجل كريم . . رجل بالغ التقوى والطيبة والصلاح لقد حفظه الله وحفظ عرضه منى . . فلأسرع وأغادر الغرفة قبل أن يعود وربما افتضح أمرى .

لكن هذه الفتنة النائمة . . هذا الداء الصارخ كيف أصم أذنى عن سماعه . . واقتربت من الفراش ولمست ذراعها البض فإذا بها كقطعة من الجليد . . هززتها فلم تستجب . . ناديتها فلم تسمع . . فألقيت عليها بالغطاء وقد خيل إلى أنها ماتت لما أحسسته من تثلج أطرافها وجبينها . . وسرت رعدة فى أوصالى وانتابنى

الرعب ففررت من البيت لا ألوى على شيء وأخذت أعدو حتى ميدان السيدة زينب حيث ركبت أول ترام صادفنى وأنا لا أكاد أصدق أنى نجوت.

---

obeikandl.com

عرفتها ...

عرفتها منذ أمد بعيد .
فعرفت منها الجمال الخالد .
فى كل صوره الرائعة . . .
الأغاريد العذبة . .
الحرية الحبيبة . .
الأناقة والتزين للناظرين .
وشاهدت فيها .
كل ما يشعل العاطفة فى القلب .
ويبعث فى النفس بفيض الأمل . .
وبين أحضانها عرفت السلام والهدوء .
واستشعرت الراحة والسكينة .
وتذوقت العطف والحنان .
فإلى أين كنت أتوجه .
فى هذا العالم الجاحد .
لو لم أكن قد عرفت .
أمنا . . الطبيعة ؟

محنة الإيمان

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون »

أذن مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الناس لينفروا لحرب الروم الذين يهددون حدود الجزيرة الشمالية والشمالية الغربية واجتمع من المسلمين عدد كبير حتى كان لا يجد الرسول صلى الله عليه وسلم ما يحمل بعضهم عليه من دواب القتال فيعود أدراجه دامع العين حزين القلب مكتئب النفس يشكو إلى الله حرمانه من شرف الجهاد وجنة الشهداء التى وعدهم الله بها وسمع كعب بن مالك مؤذن الرسول فيمن سمعوه لكنه تثاقل وتشاغل حتى رحل الجيش إلى تبوك وهو فى المدينة باق وكان فى بسطة من الرزق وقوة جسم يؤهلانه للحاق بالركب المجاهدين لكن الشيطان زين له التخلف عنهم والقعود وخوفه حر الصيف وحمارة القيظ فى الصحراء وهو يعلم أن نار جهنم أشدُّ لهيباً .

وربما وسوس له الشيطان بأنه فرد واحد وقد رد الرسول غيره ممن لم يستطع حملهم معه وهمس فى قلبه بأن الغزوة قد تطول ويطول معها فراقه لزوجه الشابة الحبيبة بينما لو بقى فى المدينة فى متعة من رياضها البهجة وظلالها الوارفة وكرومها

الدانية وزوجه الجميلة فلن يضر المجاهدين تخلفه وهم بحمد الله كثيرون وفيهم الخير والبركة .

لكن ما كادت الشقة تبعد بين يثرب وجيش المجاهدين حتى انتفض قلبه بين جنبيه يؤنبه ويعنفه ويخزه وخز الإبر بقارص حديثه ولاذع قوله وشر وعيده ونذره فاذا ما أتى ظل كرمة يستروح من وهج الشمس ولافح الحر سمع هاتفاً يناديه « أتجلس فى مكانك هذا تنعم بالظل وتأكل العنب وميزانك خفيف وعملك ضعيف ورسول الله الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يغذ السير فى الصحراء صابراً على وعثاء السفر وعناء الطريق ولفح الحر ووهج الصحراء ابتغاء مرضاة الله وطمعاً فيما عند الله ؟ » فينقبض كعب فى مكانه ويهب واقفاً يفزع من هذا الهاتف إلى الأسواق عله يشغل نفسه عنه ويتفرغ بسمعه إلى كلام الناس بدلا منه لكنه ما يكاد يدخل إلى بيته ويجلس إلى زوجه ويأخذان فيما تعوداه من الحديث والسمر ساعة أو بعض ساعة ويهم أن يقترب منها يرتد عنها مذعوراً وقد أربد وجهه وأخذ يسترجع ويحوقل فتسأله زوجه وقد همها الأمر « ما خطبك ؟ » فيجيبها بعد لأى « ذكرت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم محرومين من الراحة ومن نسائهم يسعون جادين ولعلهم يحاربون فيقتلون ويقتلون وأنا هنا قعيد دارى

آمناً على نفسى ومالى أنعم بكل شىء مما لا يغنى عنى من الله شيئاً فاللهم لاحول ولا قوة إلا بك ... اللهم لاحول ولا قوة إلا بك إنا لله وإنا إليه راجعون ... اللهم إن لم تغفر لى فقد بؤت بخسران مبين » .

وهكذا انقضت أيام كعب فى المدينة بين هم مقيم وندم واستغفار وهو لا يكاد يقر له قرار ولا ترقأ له عين من الدمع حتى عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ووصل المدينة . فبدأ بالمسجد وصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس فجاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله .

وأقبل كعب فى خطى مترددة يقدم رجلا ويؤخر أخرى حتى بلغ المسجد وهو من فرط خجله واستشعاره بعظيم ذنبه وما فرط فى حق الله تبارك وتعالى يود لو أن الأرض قد انشقت فأراحته من هذا الموقف العصيب ومن هول هذا الخزى والعار الذى سيعلن على رؤوس الاشهاد أو لو أن نازلة من السماء خسفت به الأرض أو لو أن مرضاً أقعده عن هذا السعى .

لكن شيئاً من هذا لم يحدث وها هو يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم والرسول يتبسم تبسم المغضب ويقول له « تعالى » فيمشى حتى يجلس بين يديه فيقول له : ما خلفك ألم تكن

قد أبنت ظهرك ؟

— بلى والله لو أنى جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ولكننى والله لقد علمت ان حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به علىّ ليوشكن الله أن يسخطك علىّ ولئن حدثتك حديث صدق تجد علىّ فيه أنى لأرجو فيه عفو الله عنى والله ما كان لى من عذر . . والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

— أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك .

فقام كعب وقد زاد كربه وعظم همه واشتد خوفه من قضاء الله فيه وهو كان يحسب أنه ملاق جزاءه الساعة فإذا به يترك نهباً للحزن والتفكير وهو لا يدرى هل يطول مداهما أم يقصر ولعذاب لا يعرف متى منتهاه ولا مدى شقوته به .

ولحق به قوم من بنى سلمه يؤنبونه ويهونون له ذنبه ويلومونه على أنه لم يعتذر للرسول فقال أحدهم له « والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا » وقال الآخر « لم لم تعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفاره لك » ، وما زال به الآخرون يحدثونه حتى همّ بتكذيب نفسه لينجو من عذاب الانتظار وشقاء مقاطعة الناس له لكنه قبل أن يشرع فى العودة سأل صحبه :

ـــ هل لقى هذا معى أحد ؟
ـــ نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل الذى قيل لك .
ـــ من هما ؟
ـــ مرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أميه .
ـــ انهما لصالحان وقد شهدا بدراً وغفر الله لهما فيمن غفر له من أهل بدر .
ـــ فأنت أحوج لاستغفار رسول الله منهما .
ـــ والله لا أرجع .. وقد جعل الله لى فيهما أسوة حسنة ومامنزلتى عند الله ببالغة شيئاً من منزلتهما .. وشق على كعب مقاطعة الناس له أكثر من صاحبيه لأنهما اعتزلا فى منزليهما يبكيان أما هو فكان أكثر منهما شباباً وفتوة فكان لا ينى عن السير فى الأسواق ويشهد الصلاة مع المسلمين ويقترب حين الصلاة من الرسول فيقبل إليه حين يقبل على صلاته فإذا التفت إلى الرسول أعرض عنه وكان يأتى مجلس الرسول فيحييه بعد الصلاة ثم يسائل نفسه « هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا » ؟ إلى أن عاد إلى بيته ذات يوم وقد فاضت عيناه من الدمع وغشيه من الهم أقصاه فسألته زوجه : ما بك يا ابن مالك ؟
ـــ لقد احتملت إعراض الناس عنى وعدم حديثهم إلى طويلا
ـــ سيأتى عفو الله قريباً .

ـــ كنت أطمع أن يكون أبو قتادة ابن عمى وأحب الناس إلى أقل جفاء فى معاملتى .

ـــ وما فعل أبو قتادة ؟

ـــ لقد علمت أنى ان أتيت أحداً من باب بيته فلن يأذن لى .

ـــ وماذا فعلت اذن ؟

ـــ تسورت جدار حائط أبى قتادة فسلمت عليه فوالله مارد على السلام فقلت : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة وإذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلى كتاباً من ملك غسان .

ـــ وماذا فى كتابه ؟

ـــ خذيه فاقرئيه .

ـــ أما بعد فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك . . .

ـــ أفرأيت ؟

ـــ أجل وماذا قلت للنبطى ؟

— إنه لم ينتظر ردى فى السوق حتى لا يكشف أمره . . . إنما هذا بلاء جديد يلحق بنا ليمتحن الله صدق إيماننا .. سجرى[1] التنور[2] فاحرقى هذه الرسالة وكفانا ما نحن فيه من بلاء وبينما كعب فى حديثه مع زوجه إذ طرق رسول رسول الله بابه فخرج اليه فإذا به يقول له :

— إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك .

— أطلقها أم ماذا ؟

— لا ولكن اعتزلها ولا تقربها .

فعاد كعب إلى زوجه الحبيبة التى واسته خلال أربعين يوماً لم يكلمه فيها أحد سواها عاد إلى شعاع الأمل الوحيد فى حياته . . . عاد إلى العزاء الباقى له فى وجوده . . عاد إلى شطر نفسه وتوأم قلبه ليقول لها والدمع ينسال على خديه : الحقى بأهلك . . .

— أهذا أمر رسول الله ؟

— نعم . . . واسألى الله تعالى أن يعجل لنا بلقاء قريب .

— عفا الله عنك يا كعب .

وانصرفت عنه وهى تغالب دموعها لكن دموعها غلبتها وهى تبرح الدار تبكى وتنشج وانقضت عشر ليال أخرى حتى كملت خمسون ليلة منذ أمر الرسول الناس بمقاطعة المخلفين . .

---

(١) أوقدى (٢) الفرن

انقضت عشر ليال وابن مالك فى بيته وحيداً تعتصر قلبه الوحدة وقد زادت آلام قلبه ألماً جديداً مضاً . . . انقضت عشر ليال وابن مالك لا تهدأ له نفس ولا يقر له قلب ولا تغمض له عين ولا ينقطع عن الابتهال إلى الله والدعاء والاستغفار ينشده الرحمة والعفو الجميل وبينما هو جالس على سطح بيته بعد صلاة الفجر صبيح خمسين ليلة وقد ضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الأرض بما رحبت إذا بصوت صارخ من أعلا جبل سلع يقول « يا كعب بن مالك أبشر » فخر كعب ساجداً لله تعالى وقد أدرك أن براءته قد نزلت من السماء .

من الأدب القديم :

المزمار

يحكى أنه كان فى سالف العصر وقديم الدهر عازف على المزمار بلغ من المهارة حداً بعيداً حتى أن دواب الأرض كانت تطرب لعزفه وتنشرح لصوت مزماره لكنه كان تعس الحظ قد أمسك الفقر بتلابيبه لا يريد أن يفلته .

فلما ضاقت عليه الأرض بما رحبت وظن أن الله قد قدر عليه رزقه فى بلدته وأنه لابد له من الرحيل عنها وإلا هلك جوعاً عزم على الفرار ليلا تاركا زوجه وولده لرحمة القدر ، وما أن تقدم الليل حتى كاد أن ينتصف واستغرق الحى فى سبات عميق ، تسلل فى حذر من حجرته الحقيرة وانطلق لا يلوى على شىء وأخذ يصعد فى الجبل القائم على مشارف المدينة حتى نال منه التعب كل منال فجلس يستريح قليلا تأهباً لاستئناف الرحلة ، لكنه عندما التفت وراءه طالعته صورة المدينة الراقدة تحت أقدامه فى سكون ودعة فهاج المنظر كوامن نفسه وغلبه التأثر لفراق أهله ووطنه فانهمرت الدموع من عينيه غزاراً وترك لنفسه العنان تبكى ما تشاء حتى إذا ما انفثأ غضبها وخفت حدة

حزنها تناول مزماره وأخذ ينفخ أعذب ما أخرج من ألحان وسحر بعزفه فلم يشعر إلا وثعبان عظيم منتصب يرقص على أنغامه فاستمر فى عزفه والثعبان نشوان يرقص ويهتز طرباً حتى إذا تعب من العزف وأنهك الثعبان الرقص قذف له الثعبان بدينار من ذهب وطلب منه أن يرجع إليه كل يوم فى مثل هذه الساعة وله مثل ذلك الدينار وكاد الرجل يطير من الفرح وتلاحقت فى مخيلته صور السعادة المقبلة عليه والرزق الوفير الذى سيغدق عليه وسعة العيش التى سينالها وهو باق بين أهله وأولاده وأحبابه دون أن يرحل عنهم أو تضطره الظروف لفراقهم .

وانحدر من الجبل جذلان سعيداً لكن ما كادت تحتويه طرقات المدينة وظلامها حتى هاجمته شياطين السوء وهجست نفسه بهواجس الشر تحدثه : أصدقت الثعبان ، أما علمت أنه حليف الشيطان ؟ ألم يكن رسوله لأم البشر حواء ؟ وهل تعتقد أنه سيوافيك فى موعده ؟

وكاد رأسه أن ينفجر لكثرة الأفكار التى تناوبته وعذبته حتى صاح بصوت مرتفع « كفى كفى ! لنحتمل شقاء يوم آخر » .

وعاد الرجل إلى بيته منهك القوى فألقى بنفسه على الفراش واستغرق فى نوم عميق لم يفق منه إلا وقد أضحى النهار وكاد أن ينتصف فأخذ يستعيد صور الليلة الماضية وكأنها حلم أو رؤيا

من الشيطان لا تصدق لكنه تحسس جيبه فوجد الدينار الذهبي في مكانه فأخرجه فكاد بريقه في أشعة الشمس أن يخطف بصره فاطمأن قلبه واستراحت نفسه وأيقن أن الأمر كان جداً لا هزلا وأنه من اليوم أصبح من السعداء لكن ساعات اليوم تثاقلت ولا تريد أن تنقضي حتى يفوز باليقين المبين وحتى يعلم أن صديقه صادق فيما وعد وهو يتعجلها أن تمضي ويتعجل لأولاده النوم في المساء .

وأخيراً أقبلت الساعة الموعودة وتسلل حذراً من البيت حتى لا يحس به إنسان وانطلق إلى الجبل حتى إذا ما بلغه أخذ يصعد فيه مسرعاً حتى بلغ مكان اللقاء فجلس قليلا ريثما استعاد أنفاسه المبهورة ثم أخرج المزمار من صدر ردائه وأخذ يداعب فتحاته بأنامله ويرسل النغم عذباً شجياً في سكون الليل .

وما لبث إلا قليلا حتى أقبل الثعبان نشوان مسروراً يهتز طرباً وحبوراً وأخذ يرقص والرجل ينفخ في نايه حتى السحر فألقى إليه بالدينار وانصرف فعاد صاحبنا إلى بيته بنفس مطمئنة راضية مرضية — واستمر الأمر كذلك شهوراً عدداً يذهب العازف كل مساء إلى الجبل ليلقى صاحبه فيعزف له حتى يطرب ويسر فيعطيه الدينار .

إلى أن أصيب الزمار ذات يوم بمرض أقعده عن السعي

وألزمه الفراش فدعا إليه ابنه وقص عليه الأمر كله وطلب إليه أن يسير إلى المكان الموعود ويعزف على الناى ويأتى لأهله برزقهم فصدع الابن بالأمر وذهب إلى الجبل وهو خائف يترقب وما أن بلغ البقعة المعروفة حتى جلس وأخرج الناى وأخذ يعزف عليه وكاد يفر من مكانه عندما لمح الثعبان العظيم يقبل عليه مسرعاً لكنه تذكر أن أباه مريض وأن الأسرة كلها — أمه وإخوته وأباه — فى حاجة إلى هذا الرزق فتماسك على نفسه واستمر فى عزفه حتى أصبح الثعبان قدامه وأخذ يرفع رأسه إلى أعلا شيئاً فشيئاً ثم ينمايل بها طرباً .

واستمر الغلام يعزف والثعبان يرقص حتى تعبا فألقى إليه الثعبان بالدينار فأخذه وانصرف وأخذ الغلام يأتى كل يوم إلى الثعبان ثم ينصرف فرحان بهذا الرزق السهل الحلال إلا أنه ذات ليلة بعد أن ألقى إليه الثعبان بالدينار لم ينصرف لتوه بل بقى فى مكانه من الجبل يقلب الدينار بين يديه ويسائل نفسه : من أين له بهذه الدنانير ؟ لابد أن هنا قدراً كبيرة مملوءة بالدنانير قد عثر عليها هذا الثعبان اللعين . . واليوم حلاله أن يستعبد الآدميين ؟

أخذ الغلام يتبعه ببصره حتى عرف مستقره مستعيناً فى تلك الليلة بضوء القمر الذى غمر الكون فزاد الليل بهاء وجلالا .

وبات ليلته يفكر فى وسيلة يظفر بها بالذهب كله دفعة واحدة ويصبح بعدها من الأغنياء ووجهاء القوم لا زمار الحى الحقير الذى يسعى فى كل يوم إلى أعلا الجبل صاغراً ليلتقى رزقه وأضمر فى نفسه أمراً وفى الليلة التالية بكر الغلام بالحضور وأعد إلى جواره حجراً عظيما أسند إليه جانبه وبدأ فى العزف وأقبل عليه الثعبان سريعاً وفى غمرة الطرب والنشوة أمسك الغلام بالحجر بغتة وضرب به الثعبان فقفز الثعبان نحوه فقطع الحجر ذنبه فقط بينما استطاع هو أن يمسك بالغلام ويلف جسمه حوله ويضغطه حتى يقتله .

ولم يعد الغلام إلى الأسرة التى باتت تنتظره وانقضت أيام أربعة فى البحث والتنقيب دون جدوى وكان الوالد خلال هذه الأيام يتمائل للشفاء فما أن تمالك قواه حتى أخذ مزماره وتوجه إلى الجبل — وفى الطريق إلى مكانه المختار عثر بغته بجثة ملقاة قد جيفت وأنتنت تعلق بها بصره وتسمر الرجل فى مكانه لا يدرى : أهذا حقاً ابنه ؟ أيكون قد غدر به الثعبان ؟

وما أن أفاق من هول الصدمة حتى اقترب من الجثة وأدارها فطالعه وجه ابنه وقد جحظت عيناه وتدلى لسانه .

جلس الرجل بعيداً عن الجثة المنتنة تتنازع نفسه عوامل شتى . . . الثأر . . . الحزن . . . أولاده الجياع الذين تركهم فى

البيت يتضورون من الجوع وزوجته التى أنهكها التعب فى البحث عن غلامها وسوء الغذاء .

أخيراً مد يده فأخرج الناى وأرسل أنغامه الحزينة تذيب الصخر وتبكى الرياح وتستدر دموع القمر .

وأقبل عليه الثعبان وما أن اقترب منه حتى تبين ذنبه المقطوع فأدرك حقيقة ما حدث كله وعلم أن ابنه هو الغادر الآثم الذى بدأ بالشر فازداد حزنه .

أما الثعبان فقد لمح الجثة قريبة من الزمار فارتد إلى الوراء قليلا وساورته الريبة فى أمر صاحبه ولم يستطع الرجل الاستمرار فى العزف كثيراً كما أن الثعبان لم يكن به أى ميل إلى هذا الطرب فألقى بالدينار للرجل من بعيد وانصرف .

عاد الرجل أدراجه إلى بيته بعد أن وارى الجثة فى التراب مثقل الفؤاد بالحزن والألم لا يكاد يقوى على جر قدميه أو الانتصاب واقفاً كعهد الناس به وما أن دخل على زوجه حتى وجدها يقظى تنتظره وبادرته بالسؤال أين كنت حتى الساعة ؟

ـــ كنت ألتمس لنا لقمة العيش .

ـــ ألم تبحث عن ابنك ؟

ـــ لقد فعلت .

ـــ إلام انتهيت ؟

— علمت أنه قتل .

— رباه .. رباه .. يا ويلتاه . . يا ولدى يا ولدى .

— رويدك رويدك .. هذا قضاء الله .

— ومن قتله ؟ وكيف قتله ؟

— هذا مالم أعرف بعد ... إنما أنا على موعد مع صديق سيدلنى على كل شىء .

واستيقظ كل من فى الدار على صياح أمهم وتجمعوا حول الرجل وزوجه يستفسرون عن الخبر ولما علم الأطفال بالأمر أقسموا على الثأر لأخيهم إن لم يكن اليوم ففى الغد القريب .

أما المرأة فقد أقسمت وهى فى سورة الحزن والغضب على ألا يلمس الماء جسدها حتى يثأر الزمار لغلامها وأطرق الرجل حزيناً مهموماً تعصف برأسه الأفكار وتتردد على مخيلته الأسئلة المحيرة التى لا يكاد يجد لها جواباً وطغت أفكاره على جميع حواسه حتى صار يتحدث إلى نفسه بصوت مسموع « وهبنى عرفت مكان الذهب لكنى فشلت كما فشل ابنى ؟ أتموت هذه الأسرة جوعاً ؟ يالهم من حمقى مجانين ؟ إنهم لا يعلمون أن القاتل هو مصدر نعمتهم ؟ إنهم لا يدركون أن ابنهم هو الخائن الغادر الذى استحق هذا المصير ؟ يا إلهى أقدرت على أن أعيش حياتى فى عذاب متصل أشبع يوماً وأجوع أياماً ؟ وإذا ما عثرت على

هذا الرزق السهل الذى أذاقنى لذة الحياة سرعان ما يشوبه الألم ومرارة الحياة ؟

أجل هل من المعقول أن أرى قاتل ابنى وفلذة كبدى كل يوم ولا أقتله ؟ ألا أثأر لدمى المهدر ؟

وياليت الأمر يقتصر على ذلك بل علىّ لأنال نصيبى من العيش أن أخدم غريمى وأدخل الطرب على نفسه أواه .. حقاً لقد صدق من قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

حتى الطفل الصغير الذى لم يتجاوز عامه الرابع يقسم على الثأر لأخيه ؟ فما بالى أنا ؟ إلهى أما لهذا العذاب من آخر ؟

وغلبه النعاس فنام نوما متقطعاً تتخلله الأحلام المزعجة واستيقظ فى الصباح متعباً مكدوداً لكنه ما أن لمح زوجه الباكية حتى فر من البيت ولم يستطع به بقاء .

وانطلق هائماً على وجهه فى الأسواق يعزف للناس لقاء دراهم قليلة من شاء أعطاه ومن شاء منعه حتى أقبل المساء فأحصى ما جمع فوجده لم يتجـــاوز العشرة دراهم لا تكفيه عيشاً بغير إدام فيمم وجهه شطر الجبل وقد ازداد اضطرابه وعظم حزنه .

أخيراً جلس فى مكانه المعهود يعزف للثعبان الذى أقبل عليه

حتى اقترب منه فما أن رآه على هيئته حتى ريع منه وأوجس خيفة لكنه ازداد منه اقتراباً وطلب منه أن يكف عن الخوف ثم قال له « .. يا صديقي هل تظن أن ابنك أعز عليك من ذئبي عندي ..؟ ذئبي الذي هو عندي بمثابة الساق لك يساعدني في مشيي وفي دفاعي عن نفسي وفي أمور كثيرة من شئون حياتي ... لكن تعالى معي ... »

وتبعه الزمار حتى وصلا إلى بيت الثعبان وهناك أشار إليه أن اقترب وخذ المال كله فاقترب الرجل وحمل قدراً كبيرة مملوءة بالدنانير الذهبية ونظر إلى الثعبان ودموعه تنساب على خديه غزيرة وقد احتبس صوته في حلقه فلم يستطع كلاماً فقال له الأفعى « اذهب ولا تعد .. فلن تنسى ابنك .. ولن أنسى ذئبي ».

فى السماء ..

هذا المساء ...
عندما تزدان السماء بالنجوم
ويخيم على الكون السكون
وتهجع فى مضاجعها النجوم
سأجلس إلى نافذتى
أفتش عن نجمى
وأستخبره ...
مكانك فى الكون يا حبيبى
وما يحسه قلبك الآن
هل هو حافظ لعهده ؟
أم تراه قد تحول إلى سواى ؟
هل تصهره آلام الوحشة ...
مثلما تعصف بقلبى وكيانى ؟
أم شفى من حبى
واطمأن إلى قلب عداى
أيها النجم ...
أصدقنى الحديث
وارحم مدنفا بين أضلعى
يرجو لقاء روحه الغائب
فى كل مساء ...

obeikandl.com

— إلى أين يا نوال ؟

— أوه .. لقد نسيت أن أخبرك أن اليوم خطبة زميلتى منى .

— إنك لم تحدثينى عن هذه الخطبة أبداً ومن تراه عريسها ؟

— آه لو تعلمين يا أماه .. إنه عريس غنى جداً من عملاء الشركة أتى ليشترى سيارة فاشترى عروساً جميلة .

— والحفلة فى منزلها ؟

— وهل يليق بمقام العريس ؟ الحفلة فى هليوبوليس بالاس وفيها الصفوة الممتازة من « علية القوم » كما يقولون .

— ومن أجل هذه الحفلة بالذات اشتريت ثوباً جديداً للسهرة كلفك خمسين جنيهاً هى كل ما ادخرته هذا العام من مرتبك ؟

— أماه لا تبالى كثيراً بالمال . اطمئنى إلى المستقبل فهو بيد الله والله لا يخذل عباده .

— إنما لا بد من التدبير وإلا فلم خلق لنا العقل يا بنيتى ؟

— لقد كنت حقاً بطلة .. مجاهدة نكير ما تكون المجاهدات . أنا أعلم مقدار ما ضحيت من أجلى ومن أجل إخوتى قبلى .. لقد وهبك الله صبراً عظيما .. إنى لا أكاد أتخيل نفسى قادرة على أن

أنهج نهجك فى الحياة .. والتدبير .

ـ على أية حال أنت فى جيل غير جيلى وستكون حياتك مخالفة لما اعتدته أنا ولا شك .

ـ أرجو ذلك .. أتدرين من قابلت اليوم ؟

ـ الله وحده يعلم .

ـ صديقتك الحميمة ليلى هانم .. وستأتى ابنتها حالا لتصحبنى إلى الحفل .

ـ وسيقود أخوها السيارة أليس كذلك ؟

ـ دعينا من أخيها الآن .. لقد حدثتنى خالتى ليلى عن جمالك الفاتن أيام الشباب وكيف كنت محسودة لهذا الجمال .. لقد كانت تتصور أنها هى التى ستتزوج زيجة عادية وتوقعت لك زيجة رائعة .

ـ الحمد لله يا بنيتى لقد كانت حقاً رائعة .

ـ طبعاً .. طبعاً كان أبى رحمه الله زوجاً مثالياً ولا شك ولكم أحببته من كل قلبى .. لكن أليس من المؤسف أنه لم يحرز أى تقدم يذكر مدى حياته ؟ إنه لم يترك لك سوى هذا المنزل الصغير ولم نستطع فى حياتنا أن يكون لنا خادم مستديم .. وما كنت لتستطيعى شراء ثوب جديد إلا كل عامين .. وقضيت حياتك فى عمل متواصل بلا راحة .. أواه إنى أحياناً أرثى لحال النساء فى بلادنا وأحياناً يخيل إلى أنهن بحاجة إلى قارعة من السماء توقظهن

من سباتهن العميق وذهن الأبدى .

— أرجوك يا نوال .. لا تصدقى ليلى فى كل ما تقول .

— وكيف ؟ ألم تظفر بحياة أسعد ؟ إنى لن أقبل من زوجى أن يسكننى فى منزل كهذا تكاد جدرانه « البغدادلى » تتهاوى من اللمس لفرط رقتها ومنها ينفذ إلى كل صوت منكر .. من مذياع الجيران إلى صياح الباعة أو نهيق الحمير .. لا .. لن أحاسب على كل قرش يخرج من جيبى وأتحسس خطواتى نحو المستقبل المجهول الذى تظلم طرقاته مع كل جنيه نفقده .. لا .

— لا تفكرى كثيراً فى حياتى أنا .. وربك لن يخزيك أبداً إن شاء الله .. اذهبى فى رعاية الله .. إنى أسمع نفير سيارة ليلى ولا شك أن احسان وسعاد على عجل .. هيا ولا تتأخرى كثيراً لأنى سأبقى مستيقظة حتى تعودى سالمة .

وطبعت نوال قبلة خاطفة على خد أمها وانطلقت تعدو على الدرج لتلحق بصديقتها وأخيها بينما كانت زينب ترقبها من نافذة البيت بنظرات كلها الحنان والأمومة والشفقة ..

لقد أشفقت زينب أن يكون نصيب إبنتها رجلا كإحسان ليس له القدرة على مواجهة الحياة .. حقيقة أن والده غنى ويمتلك مصنعاً ضخماً للنسيج لكنه هو أخفق فى التعليم الثانوى فلم يتممه وأصبح لا هم له فى الحياة إلا الجرى وراء متعته والإنفاق

من مال أبيه بغير حساب ولقد ألحقه أبوه أخيراً بالمصنع وربما ورثه أو حل محله فيه لكن . . إنه ليس أهلا للتغلب على عقبات الدنيا طالما أنه أضعف من التغلب على نزواته وربما أدى به هذا الضعف إلى هدم كل ما شيده أبوه . .

لعل نوال سعيدة الآن بصحبته أكثر من زملائها فى الشركة الذين لن يستطيعوا أن يحققوا لها شيئاً من أطماعها بمرتباتهم المحدودة ودخولهم القاصرة . .

وزفرت زينب زفرة طويلة ثم همست لنفسها . . لو كنت فى مكانها لفضلت الجلوس فى كرسى « بلكون » بعشرة قروش فى السينما مع شخص أحبه على الجلوس فى « بنوار » بعشرة جنيهات فى حفلة لأم كلثوم مع رجل كهذا .

لكنها لم تكن نوال . . ولعل نوال تحب إحسانا ولعلها لم تهتم كثيراً بتفاهة أفكاره وسخف حديثه لكن هل حقاً أن إبنتها نوال التى تلتمع ذكاء وجمالا تتصور أن السيارة والمنزل الأنيق والملابس الغالية والخدم هى الأسس القوية لزيجة سعيدة باقية ؟ . . من المحتمل . .

واسترخت زينب فى جلستها فى استسلام لما تجرى به المقادير وقد قفزت إلى مخيلتها صور كفاحها الطويل خلال إثنين وعشرين عاماً لتخلق شيئاً من زوجها الراحل . . حقاً لقد كانت مثلها العليا

شبيهة إلى حد كبير بما يدور برأس ابنتها . . فهى أيضاً قد تاقت نفسها إلى اللهو والمرح وحياة الدعة والترف والحفلات والأصدقاء . . لكنها تزوجت محموداً وكان يوم زواجهما كاتباً صغيراً فى المصرف وكانت تحلم أن يصير يوماً ما مديراً لذلك المصرف أو على الأقل عضواً فى مجلس الإدارة بجده ونشاطه وبما سيدخرانه من مال . .

بل لقد كانت له هواية أخرى حببته إلى قلبها . . هواية لها خطرها وإغراؤها وأمجادها . . تلك هواية الأدب التى كان يزجى بها أوقات فراغه ولقد بدأ فى كتابة عمله الخالد فى « دراسة الحياة » عقب زواجهما مباشرة لكنه رحل عن الدنيا بعد اثنين وعشرين عاما ولم يتمم ذلك الكتاب ولم يرق لأكثر من وظيفة باشكاتب فرع الموسكى التابع للمصرف بعد أن فقد كل أمل فى الإدارة أو مجالسها ورغم أنه ظل لآخر أيام حياته مثالا للموظف المجد فى عمله كما كان يقول لها دائماً . .

لقد بدأ حياتهما فى شقة صغيرة متواضعة فى حى عابدين وسرعان ما أنجبا بنتين وولد فى ثلاثة أعوام متوالية ثم نوال فى عامهما الخامس . . لقد تزوجت البنتان فى حياة أبيهما أما أسامة فهو موظف فى نفس المصرف بفرع الاسكندرية ولم يبق معها سوى نوال التى تعمل لتعاون أمها على أعباء الحياة ولتجد بين

يديها المال الكافى لتشترى كل ما تتوق إليه نفسها .

وانفرجت أسارير زينب عن ابتسامة رضى وهمست لنفسها « الحمد لله لقد ترك لى رحمه الله هذه الفيلا الأنيقة بسبع غرف وحديقة صغيرة تغنينى وابنتى عن سؤال الناس وتتسع لكل أولادى معاً إذا ما زارونى »

حقاً لقد عاشت وزوجها يناضلان لكى يدفعا أقساط هذا المنزل بل وكان يصل بهما الأمر إلى احتمال ضروب من الحرمان وإنكار الذات . . إلى جانب ساعات من السعادة بل لقد ذاقا ألوانا من اللذة الغامرة إلى جانب ما تصبه الحياة على الناس من آلام . . إنها الحياة دائماً وقد عاشا فيها كما يعيش الناس وحققت زينب بعض آمالها ولو أن هذا كلفها ما لم يكن لها بحسبان .

وأخذت صور الماضى تتلاحق فى مخيلتها بألوانها المتباينة فذكرت جهودهما المتواصلة لتجنب الوقوع فى الدين مع محاولة مواجهة أعباء العيش ومصاريف تلك الأسرة المتزايدة وذكرت مرض وحيدهما بالحمى عندما بلغ العاشرة وكم كلفهما ذلك المرض اللعين من نفقات حتى استدان زوجها مكرهاً وهو الذى عاش حياته يرعبه شبح الدين وما كان خياله يصوره عن الذل الذى يصيب المدين ... وتذكرت أزمات المصروفات المدرسية التى كانت تحتجز بعض الأولاد عن المدارس لبعض الوقت والملابس

الجديدة للأولاد وجهودها المضنية فى ترفيع القديم ومحاولاتها الدائمة لاطالة عمر كل شىء فى البيت إلى أقصى ما يمكن . . كما ذكرت الأيام القلائل التى كانت تقضيها الأسرة بين صيف وآخر فى مصيف أى قير الملىء بالذباب يتنسمون أنسام الحياة ويتنعمون بالصيف فى حدود إمكانياتهم المتواضعة وأخيراً . . أخيراً بعد أن ولى الشباب وغادر الأولاد مدارسهم بدأت وطأة هذا الكفاح المرهق تخف شيئاً فشيئاً . .

حقاً إن محموداً لم يحقق شيئاً من أحلامه فى العظمة أو الشهرة أو النفوذ أو الثروة لكنه لا يستحق أن يوصف بما وصفته به ابنته . . إيه . . إنها لم تعد التاسعة عشر من عمرها وهى سن صبغتها الطيش والاندفاع والغرور بقوة الشباب . . لكن « هل حقاً إن زوجى لم يحرز تقدماً يذكر فى الحياة ؟ وهل نسيت نوال تلك البطولة الصامتة التى أفنت حياتها فى سبيل إسعاد من حولها وتقديم مواطنين صالحين لمصر ؟ لا . . لقد كان محمود بطلا ولا شك . . لم يخذلنا فى يوم قط » .

* * *

أما سعاد فكانت تهمس فى أذن نوال بعد أن انطلقت بهم السيارة .

— هل سمعت يا نوال عن صديق احسان الجديد ؟

— ومن يكونه ؟

— إنه شاب يدعى رمزى حضر عندنا فى حفلة الأسبوع الماضى واخترنا له فتحية لتزامله لكنها لم تطقه لحظة ولست أدرى ماذا سيكون شعورك نحوه ؟

— ولم هذا السؤال ؟ أليس رجلا كسائر الرجال ؟

— لا يا أختاه . . إنه نوع غريب بعض الفتيات لا يطيقه وبعضهن يفتن به لدرجة الجنون أما رأى الشخصى فهو شاب وديع ولعله يبالغ فى الحرص على كرامته ؟

— وما الداعى لذلك ؟

— أظن لما أصاب والده أخيراً . . لقد كان أبوه من كبار تجار الأقطان لكن مضاربات سنة ١٩٥٠ التى يسمونها « كورنر الأشمونى » لم تبق له شيئاً وعند ما اضطر المصرف الذى يتعامل معه إلى تصفية أملاكه رجا المدير ليلحق رمزى بالعمل فى المصرف ليبقى على كرامة الأسرة ويترك لها عائلا يعولها . .

— وهل الفقر عيب حتى يخشى منه على كرامته ؟ يخيل إلى أنك تبالغين يا سعاد .

— سترين بنفسك . . .

ودلف ثلاثتهم إلى بهو الفندق وتوجهوا جميعاً إلى مائدة كبيرة فى أحد الأركان حيث جلس ثلاثة آخرون هبوا لتحيتهم

وما أن تلاقت نظرات نوال بنظرات رمزى حتى ابتسم كل منهما لصاحبه وكأنه يقول له : أهذا أنت ؟ ، وخيل إلى نوال أنها نسيت يدها فى راحته .. أو نسيت نفسها وهى تحدق فى وجهه تتأمله فى نشوة لكنها أسرعت بالجلوس وقد عراها شىء من الارتباك وعلت خديها حمرة الخجل لما أحست بنظرات الجميع تتطلع إليها .

لقد ظلت ذكرى ذلك اللقاء الأول منقوشة فى خيالها تتردد على قلبها بين وقت وآخر وكانت دائماً خيط الأمل الذى تتعلق به كلما نشب الشجار بينها وبينه أو ساءت العلاقة بينهما .

وعندما نهضا للرقص سوياً أحست كما لو أنها راقصته من قبل مرات ومرات وازداد اقترابها منه واعتمادها على ذراعه القوية التى أمسكت بيدها بشدة وبعد عدة دورات همس فى أذنها « من العجب أن ألقاك فى هذا المكان .. لقد كنت أتوقع هذا اللقاء يوماً ما فى أى مكان آخر خلا هذا المكان » وازدادت ضربات قلبها حتى كادت تصم أذنيها وارتج عليها فلم تدر بماذا تتحدث لكنها ودت من أعماق نفسها لو واصل هو حديثه وأسهب فى كلامه وأفصح بأكثر مما تكلم وعندما رفعت بصرها نحوه تستزيده من الحديث أدهشها أن تجد نظراته قد انصرفت عنها وتركزت على فتاة فى أقصى البهو رشيقة القوام حسناء الوجه بالغة الأناقة وبعد لحظة تنبهت الفتاة لنظراته فحيته بإيماءة خفيفة

من رأسها وابتسامة لطيفة ولما انتهت الرقصة عاد بها إلى المائدة ثم استأذن قائلا : « لقد رأيت صديقة من صديقات الطفولة فاسمحي لي لحظة » .

وما أن غادرها حتى التفتت إلى إحسان تسأله : — من تكون هذه الفتاة يا احسان ؟

— إنها من الأرياف .

— ماذا تعني بالأرياف ؟ هذا غير ممكن .. لقد تفوقت على كل الحاضرات في زينتها وهيئتها ..

— لقد حدثني عنها رمزي مرة .. إن والدها سفير لمصر في أمريكا أو فرنسا لا أذكر لكنها من أسيوط على أية حال .

— وهل أسيوط أرياف ؟ إنها عاصمة الصعيد ويقولون إن بها من القصور ما يفوق قصور الملوك .

— لا أعتقد .. كل ما هو بعيد عن القاهرة والإسكندرية لا يستحق أن يعيش الإنسان فيه .. لقد كنت أعجب لغرام رمزي بالعزبة والحقول وقضائه الكثير من الوقت في أسيوط .

— أهو أيضاً من أسيوط ؟

— طبعاً .

لم تكف نوال عن الالتفات إلى تلك الفتاة الأنيقة طوال السهرة بينما كان رمزي قد اتفق مع إحسان على أن يعيدها

بسيارته فتقدم إليها قائلا : — إحسان سيراعق فتحية فهل تسمحين لى أن أوصلك بسيارتى إلى المنزل .

لم تعترض نوال ونهضت معه بعد أن ودعت الجمع ولاحظ رمزى عندما هم بركوب السيارة أن نوال وقفت قليلا تتأملها فقال لها وهو ينطلق بها .

— لا تعجبى لمرور أربعة أعوام على هذه السيارة .

— هذا مالم أفكر فيه قط .

— لا يا نوال . إن هذه السيارة كانت هدية من أبى حاولت أن أحتفظ بها لكنى الآن أيقنت بضرورة التخلص منها ولذلك ستباع فى الأسبوع المقبل .

— ولماذا ؟

— لامعنى لأن أدفع ثمن الوقود من مرتبى المحدود وهناك مختلف أنواع المركبات العامة .

— لكن ربما ضايقك عدم وجود سيارة لك .

لم يعلق رمزى على إجابتها وشردت نظراته قليلا فى الفضاء وهو يتأمل المستقبل المجهول أمامه .. وماذا تهم السيارة ؟ إن حياته الجديدة ملأى بالمتاعب ولن يكون فقد السيارة أخطرها .

وبينما كانت نوال تفكر فى كلمة تقولها له من باب التشجيع أو المواساة قطع عليها حبل تأملاتها عندما التفت إليها وقد علت

وجهه ابتسامة مشرقة والتمعت عيناه ببريق من السعادة غريب وهو يهمس « إن لقاءنا كان أسعد حدث فى حياتى » وللحظة أحست نوال بسعادة غامرة وأدركت أنها انتصرت لكن لسانها السريع الزلل وقلبها الغيور أفسدا عليها هذا النصر وتلك السعادة عندما وجدت نفسها تقول له دون تروى « حقاً إن لقاء الأصدقاء القدامى من الأحداث السعيدة » .

صدمه جوابها العجيب فغاضت الابتسامة من وجهه وحل محلها فراغ اليأس وخيبة الرجاء .. لقد كان منذ لحظة يظن أنه قد وجد صدى لعواطفه وآماله لكنه أحس فجأة بانهيار هذه الآمال فعاد يقول فى نبرة جافية : أتعنين سهام ؟ إنها صديقة طفولتى وآل بدر من أكرم الأسر فى بلدتنا .. إن أباها فى أجازته وقد دعانى لزيارته فى عزبته عند ما يذهب إليها قبل نهاية هذا الشهر .

ـ حقاً .. ؟ ستكون رحلة بديعة ولا شك ..

ـ إن هؤلاء القوم أقرب الناس إلى أهلى .

ـ هذا صحيح إنهم من طبقتك .. أعنى أنه سوء الحظ لا أكثر الذى دفع بك فى طريق النساء الكادحات مثلى ومثل فتحية .

لم يعلق على كلمتها الأخيرة ولم ينبس بكلمة حتى أوصلها إلى

بيتها عندئذ قال لها وهو يودعها « لن أقول يوماً ما أن لقاءك كان من سوء حظي .. أبداً »

عند ما دخلت إلى المنزل كانت أمها مستيقظة تقطع الوقت في الشغل بالابرة وقد قالت لها أول ما أحست بخطواتها « أرجو أن تكوني قد قضيت سهرة سعيدة » فلم تجب نوال بل تسللت إلى غرفتها وأغلقت الباب وألقت بنفسها فوق الفراش وأخذت تستعيد في خيالها أحداث تلك الليلة « أحقا كانت سعيدة ؟ ولماذا حاولت أن تفسد سعادتها بل وتثير في قلبه روح العداء بغيرتها العمياء ؟ وهل لها الحق في أن تغار عليه ؟ » وتزاحمت الأسئلة والأفكار على رأسها وقد أيقنت أن قلبها قد شغل وأنها قد ودعت أيام الدعة وستستقبل مرحلة أخرى من حياتها مليئة بالتفكير والقلق ..

التقت برمزي عدة مرات خلال الأسابيع القلائل التالية كانت كفيلة بإحداث تغيير شامل في نظرتها إلى الحياة وإلى أن تحس أمها بما طرأ عليها فتفاجئها ذات يوم في غرفتها وقد شردت في بحور من تأملاتها فلم تحس بمقدمها حتى جلست إلى جوارها وطوقتها بذراعها في رفق و حنان وطبعت على جبينها قبلة الأمومة ثم سألتها : ما بك يا نوال ؟ لشد ما تغيرت هذه الأيام .

ـــ أحقاً ما تقولين ؟ إني أحس شيئاً من هذا داخل نفسي .

— لا يا نوال هذا تغيير كبير يقلقني .. تقلقني كثرة وجومك وطول صمتك .. ما وراء كل هذا ؟

— وراءه أمل .. لقد أصبحت أومن بك وبآرائك .. لعلني أحببته ؟

— من هو ؟

— رمزي .. إنه شاب فقير أو أصبح فقيرا ومع ذلك فهو كريم حتى إني أشفق عليه من كرمه وألح عليه كثيرا حتى يقبل أن نجلس في مقاعد « الصالة بالسينما » .. لكنه معتز بكرامته إلى أقصى حد حتى ليخيل إلى أحيانا أن تدعيه أنت للغداء عندنا أو للعشاء كأكرم وسيلة لأرفض بها دعواته للأكل ولأوفر له شيئاً من ماله .. إنه شخص آخر غير إحسان .. إنه لم ينقم على الزمن ضياع ثروة أبيه بل إنه يخوض المعركة بجنان ثابت وكأنه واثق من النصر .. إنه كأبي .. موظف في مصرف لكني أحس بأنه سيكون له شأن .. إنه أكثر عناداً وأشد صلابة لكنه جماع الظرف والرقة والأدب والرجولة .

— لكن هل تحدثتما عن المستقبل ؟

— لا .. لم تحن الفرصة بعد

— وفقك الله يا بنيتي .

* * *

لقد تعددت مشاجرتهما خلال تلك الأسابيع القليلة وكانت تدرك زينب ما يحدث بمجرد أن ترى وجوم ابنتها وعبوسها وصمتها الطويل وعزوفها عن الحديث وانزوائها فى غرفتها بمجرد عودتها من العمل كما كانت تحس بالصلح بينهما عندما ترى نوال قد استعادت ابتسامتها ومرحها وإلحاحها فى طلب الإذن لها بالتأخر لمشاهدة السينما أو النزهة فى أى مكان آخر . . أما فى هذا الأسبوع الأخير فقد طال صمتها واطراقها حتى ساور زينب القلق لكن نوال لم تفض لها بالحقيقة كاملة . . لم تخبرها أن رمزى سافر إلى أسيوط بدعوة من والد سهام . . ولم تخبرها بأن رمزى زعم لها أنه لبى هذه الدعوة طائعاً لأنه يطمع فى وظيفة أرقى بوزارة الخارجية وعده بها وتبذل سهام فى سبيل تحقيق هذا الوعد كل جهودها ونفوذها لدى أبيها .

لم تخبر أمها باعتقادها أنها فقدته . . . إن هؤلاء الناس قد انتزعوه منها . . وبأنها تحس أن رمزى لن يعود لها إذا نال تلك الوظيفة بل سيعود إلى قومه وطبقته الغنية المترفة . . لم تخبرها بشىء من ذلك بل آثرت أن تطوى ضلوعها على كل هذه الهواجس وأن تجتر آلامها بمفردها وتطلق فى كل ليلة العنان لفكرها يستحضر بين يديها صورة اللحظات السعيدة التى قضتها مع رمزى وصورة تلك الفتاة الأنيقة الحسناء التى تكاد

نظراتها تنطق بحب رمزى والتى سوف تشترى حبه بنفوذ أبيها ..
« وسرعان ماينسانى ذلك الوغد الخائن .. لكن من غير المعقول أن يتركنى هكذا دون كلمة وداع . . »

ومضت عطلة آخر الأسبوع ومضى بعدها يوم ثم يوم آخر دون أن يحضر رمزى ودون أن تسمع منه شيئاً وهى تغالب كبرياءها التى تلح عليها للسؤال عنه إلى أن كان مساء الأربعاء عندما عادت من عملها إلى المنزل فأخبرتها أمها أن هناك فتاة تدعى ابتسام فى انتظارها منذ ساعة كاملة وقد أخبرتها أن رمزى أصيب فى حادث بسيط وإصابته غير خطرة .

أسرعت نوال عند ما سمعت ذلك من أمها إلى « الصالون » حيث كانت سهام تذرع المكان ذهاباً وإياباً فى قلق واضطراب وما أن رأتها حتى أسرعت نحوها مادة إليها يدها تصافحها وهى تقول فى صوت مضطرب « لقد كان يسأل عنك كلما تنبه من آلامه منذ يوم الأحد يوم الحادث . . لقد كنت أنا السبب لأنى كنت أقود السيارة . . لم أشأ أن أرسل لك من قبل رغم توسلاته لكنى أخيراً أتيت إليك بنفسى . . لعلك لن تغفرى لى قط . . وربما هو أيضا لن يصفح عنى . . لكن عذرى أنى لم أكن أتصور أنك أنت . . أنت وراء كلما حدث . . بالله سامحينى » .

* * *

عندما أحس رمزى بوجودها إلى جواره فتح عينيه لتلتقى بعينيها وقد عبرت نظراتها عن كل ما فى قلبها من حب له وحدب عليه ومد يده ليمسك بيدها ويدنيها منه وهو يقول بصوت ضعيف :

ـ نوال . . لقد كنت أسعى لتلك الوظيفة من أجلك حتى أستطيع أن أتزوجك . . لكنها ضاعت منى .

ـ لا تهتم كثيراً ياحبيبى .

ـ أحقاً ما تقولين ؟ أتقبلينى زوجاً وأنا فى مثل عملى هذا ؟ أنا فى حاجة ملحة إلى وجودك بجانبى .

ـ ليس المال كل شىء فى الحياة . . إننا شابان والأمل فى المستقبل أمامنا كبير بإذن الله .

ـ إذن سنتزوج فور خروجى من المستشفى .

ولم تسأله نوال عن سر ضياع الوظيفة لأنها أدركت أن هذا هو ثمن استعادته من سهام . . لقد أحبته سهام وأرادته لنفسها بأى ثمن لكنه كان بعيداً عنها بقلبه فانتقمت منه أفظع انتقام .

ولقد زفت نوال لأمها البشرى وختمت القصة بقولها :

ـ لقد تعلمت فى هذه الأيام القلائل الكثير من شئون الحياة .

ـ هذا حق يا بنيتى ولقد أصبح بإمكانك أن تكونى

ـــ لعلنا سنضطر إلى التقتير قليلا فى بدء حياتنا ومراعاة أصول الاقتصاد لكنى على يقين من أن المستقبل سيكون لنا إن شاء الله . . رمزى رجل مثابر وإنى واثقة به .

ـــ يجب أن تثق به يا نوال .

ـــ إنى لعلى يقين من أنه سيكون يوماً ما مديراً للمصرف أو عضواً فى مجلس إدارته .

وتذكرت زينب هذه الآمال التى كانت تطوف برأسها منذ أربع وعشرين عاماً فتسكرها نشوتها وضمت إليها ابنتها فى حنان وهى تردد فى نفسها « حقاً يا نوال لم تعودى الطير الطلق الحر الذى يلهو فى رياض الحياة . . بل وقعت فى شراك الزواج وصرت ترساً صغيراً فى عجلة الحياة الدائرة بلا توقف . . إيه من يدرى ما يخبئه القدر ؟ » .

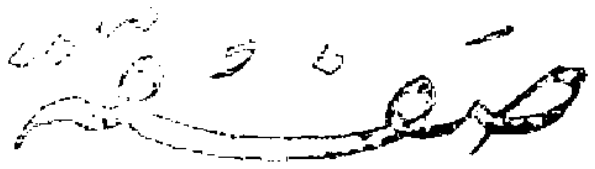

كان لقاؤها بسعيد نقطة التحول فى حياتها والطفرة الكبرى التى طفرت بها وبدء معرفتها بالحب الجارف العنيف الذى يعصف بكل شىء يعترض طريقه من تقاليد أو عادات أو فروق اجتماعية أو غيرها ..

بل كان هذا اللقاء ضوءاً قوياً أضاء لها جوانب نفسها التى عاشت حياتها لا تعرف عنها شيئاً ولم تستكنه حقيقتها وتسبر غور عواطفها إلا بهدى هذا الشعاع السماوى الذى انبعث من قلبها عاكساً لأضواء الحب الجديد .

فتنت بشخصيته القوية وإرادته الغلابة ومضاء عزيمته ورجولته الطاغية الجبارة وكان سعيد رجلا كامل الرجولة بادى القوة وسيم الخلقة عذب الحديث مهذب العبارة وكان يعمل رئيساً لقسم المشتروات بشركة للأسمدة أى أنه كان فى مركز أدبى ومالى ممتاز .

لم ترفض حبه عند ما اعترف لها به طالبا الاقتران بها لكنها أخبرته بأنها مخطوبة لرجل آخر . ففاجأها بقوله : وهل تحبين حسامًا حقاً ؟

ـــ وكيف عرفت خطيبى ؟

ـــ منذ رأيتك كنت موضع اهتمامى فجمعت عنك جميع المعلومات التى تهمنى كما أجمع المعلومات عن أى عميل من عملاء الشركة .. وهل تظنينى أتقدم إليك إلا واثقاً من عرضى .

ـــ لكن .. وحسام ؟

ـــ هل تحبينه حقاً ؟

ـــ لو لم يكن كذلك لما قبلت خطبته ..

ـــ أرجوك أن لا تتسرعى فى الحكم .. حقاً إن حساما خطيبك أى الرجل الذى تقدم لخطبتك لكنه ليس بالرجل الذى تحبينه .. إنه لم يخلق لك ..

ـــ وقبولى ..!

ـــ لا تشقى حياتك كلها من أجل كلمة قيلت بغير تفكير ومع ذلك فسأترك لك فرصة يومين لتراجعى قلبك .

وما كان بها من حاجة لتراجع ذلك القلب الذى كان يرقص طرباً بين جنبيها لهذا الحلم السعيد الذى تحقق لها فى غفلة من الزمان .

جلست بعد أن غادرها سعيد تخط رسالة لخطيبها وكان مدرساً بالريف تعلنه بفسخ خطبتها .

وما كاد المسكين يتسلم الرسالة حتى هرع إلى القاهرة ليلقاها

فوجدها تتأهب للقاء خطيبها الجديد فسألها وقد ارتسمت علامات الحزن العميق على محياه واكتهل بين عشية وضحاها . .

— هل حقاً ما كتبت إلىّ يا سعاد ؟

— أظن ذلك

— وهل فكرت قبل أن تصلى إلى قرارك الأخير ؟

— فكرت ويؤسفنى أن يكون قرارى قد أغضبك

— أبداً .. إن سعادتك تهمنى وأرجو أن تذكرى دائما أن حبك فى قلبى باق وأن هناك قلباً يحفظ لك الود وعلى استعداد دائم لأى تضحية تأمرين بها ولتقديم أى عون تحتاجينه . . ونهض واقفاً وعند ما مدت له يدها تصافحه أمسكها بين راحتيه وطبع عليها قبلة طويلة ثم انصرف فانحدرت على خديها دمعتان كبيرتان وشاع الأسى فى كيانها .

فلما أقبل سعيد قصت عليه كل ما حدث فاحتواها بين ذراعيه وهو يهمس فى أذنها « أهذا سر اكتئابك ؟ لا تحزنى من أجله فانه لم يكن لك ولم تكونى له وسيجد الفتاة التى تناسبه . فهيا وابتسمى ولا تطيلى التفكير فى هذا الأمر بعد اليوم » .

سعدت سعاد بالحياة والحب إلى جوار سعيد ومضى العام الأول وهما من نشوة الحب فى واقع كالحلم أو حلم يتمثلانه واقعا فى الحياة وأنجبت له طفلة جميلة فى نهاية ذلك العام زادتهما

سعادة وهناءة .

ولكن عند ما نشبت الحرب العالمية بعد خمسة أعوام أخرى وانقطع وارد الأسمدة تقريبا والقليل الذى كان يرد كان مستولى عليه لصالح الحكومة التى أخذت على عاتقها توزيعه بدأت الشركة فى تصفية أعمالها واستغنت عن سعيد فيمن استغنت عنهم من موظفين .

لم تكن المكافأة كبيرة وكادت أن تنفد دون أن يوفق سعيد — وقد أصبح رب عائلة كبيرة من بين أفرادها ثلاثة أطفال — إلى عمل مناسب مما تطمح إليه فى نفسه ويفى بشؤون هذه العائلة ولم يجد أمامه سوى وظائف كتابية بالقوات البريطانية أو الشركات الأخرى أو الحكومة فأبى أن يتوظف وفكر فى طريق آخر .

وجد أن عمليات النقل أكثر الحرف كسبا فباع منزله الصغير فى شبرا واشترى بثمنه سيارة نقل كبيرة وقال لسعاد ذات يوم :

— لقد بعت المنزل اليوم .

— حسنا فعلت يا حبيبى ..

— سننتقل إلى مصر الجديدة فى مسكن صغير نوعاً ما .

— سيكون أبهج مكان إلى قلبى ما دمت فى جوارك .

— نصيبك فى المنزل كان الثلث وسأودعه لك فى مشروع رابح إن شاء الله .

— افعل به ما تشاء . . وهل هناك مال لى بخلاف مالك .

— يا لك من ملاك طاهر يا سعاد . . . لكنى لست أدرى ما سيكون شعورك إذا علمت باقى القصة .

— كشعورى عندما سمعت أولها .

— حسناً . . . لقد اشتريت سيارة نقل . . . وهو عمل مربح للغاية لكنى لا أريد أن يستأثر السائق بنصف الربح . . ويتلف السيارة باستهتاره لأنها ليست من ماله . . . ولذا قررت أن أقوم أنا بقيادتها وابتداء من غد سأقوم بنقل تموينات القوات المتحالفة .

ليس هناك عار فى العمل وقريباً ستصبح هذه السيارة عشر سيارات . . . وستضطر لمسك حسابات وفتح مكتب لأعمالك وعندئذ ستكون فخوراً بجهودك المشرفة ونجاحك الباهر . . . وسأكون سعيدة بذكرى تلك الأيام التى شاركتك فيها كفاحك فى الحياة .

— لن أفشل ما دمت إلى جوارى .

وألقت بنفسها على صدره الرحيب وتلاقت شفاهما فى قبلة طويلة مجددين عهد الحب والاخلاص على عتبة هذه المرحلة

الجديدة من مراحل حياتهما وهذه المحنة القاسية التى ستختبر حبهما وتكشف عن حقيقة معدنه .

لكن لم يكن الامتحان بالغ القسوة بل استطاعا بارادتهما القوية ووحى حبهما العظيم أن يجتازا المرحلة الأولى فى سهولة ويسر وبدآ يشعران باقبال الأيام بعد إدبارها ولو أنه لم يكن فى مقدورهما التمتع بالبذخ القديم والكماليات الكثيرة التى كانت تغرقهما وتستنفد مرتب سعيد الضخم .

ومع ذلك فقد بدأ سعيد يدخر ثمن السيارة الأخرى ويستعد لتنمية عمله واستعادة مركزه المالى والأدبى القديم .

وذات يوم عاد سعيد إلى بيته قبل الغروب فطلب إلى زوجه أن تصحبه إلى نزهة فى سيارته لكنها قالت له :

ـ لدى كثير من العمل فى البيت لم ينته بعد .

ـ ألا تستطيعين إرجاءه إلى الغد ! ؟ إنك بحاجة إلى النزهة وقد مضى وقت طويل لم نخرج سوياً .

ـ ليس لدينا طعام للعشاء وسوف أبدأ بعد قليل طهيه .

ـ لنتناول عشاءنا اليوم فى الخارج .

ـ لا يا سعيد ... هذا إسراف لا مبرر له ... إن الأولاد يتوقون إلى ركوب سيارتك فخذهم معك إلى نزهة وسيكون سرورهم أدعى لسرورى من كل شىء آخر وبذلك تتيح لى أيضاً

فرصة الانتهاء من عملى فى البيت سريعاً .

ـ أمرك .

ـ سألبسهم حالا .

ـ وسأذهب بهم إلى الهرم والليلة مقمرة فنتمتع بوقت سعيد .

وعندما بلغ شارع الهرم كان هناك رتل طويل من سيارات الجيش مقبلا فأخذ الأطفال يتصايحون ويضحكون وهم يشيرون إلى ما يرونه من جنود تغنى أو جنود تعربد أو آخرين يتصايحون ووالدهم ينظر إليهم مبتسما بين لحظة وأخرى وقد سره فرحهم وأثلج فؤاده سرورهم .

وعلى حين غرة أقبلت سيارة صغيرة تجرى فى سرعة جنونية فانحرف سعيد بسيارته ليتفادى الاصطدام بها فسقط بسيارته فى حقل على جانب الطريق .

ومضت الساعات وسعاد تنتظر عودتهم دون جدوى عند ذلك اشتد بها القلق وساورتها المخاوف واستولت عليها الأوهام المفزعة ولم تستطع البقاء فى البيت فخرجت قاصدة منزل أختها فى العباسية مستغيثة بزوج أختها ليبحث لها عن زوجها وأولادها وأشفق الرجل على هذه المرأة الحزينة فخرج يبحث فى كل مكان حتى اهتدى بعد منتصف الليل على مقرهم فى مستشفى قصر العينى

حيث نقلهم بعض الجنود .

وكان سعيد قد فارق الحياة وكذا ابنه الأصغر عندما وصل زوج أختها إلى المستشفى بينما كانت البنت الثانية فى النزع الأخير فمكث إلى جوارها حتى أسلمت الروح فى الساعة الثانية صباحاً . . ولم تبق سوى سلوى البنت الكبيرة التى قيل له إن جراحها بسيطة فخرج الرجل لا يكاد يدرى كيف يواجه هذه الزوجة البائسة . . . وهو أمر لم يكن منه مفر لا سيما وفى الصباح سيتحتم دفن هؤلاء الثلاثة الشهداء ولا بد من إعداد العدة لذلك والتأهب له .

وهكذا حادثة طريق واحدة أودت بثلاثة وفجعت عائلة وحرمت زوجة وبنتها الباقية من عائلهما ... زوجة كانت سعيدة بحياتها الزوجية ناعمة فى دنياها راضية عن معيشتها رغم ما لاقت من ظروف قاسية لكن هذه الحادثة غيرت نظرتها للحياة وملأت قلبها يأساً لاسيما بعد هذا الفراغ الهائل الذى تركته وفاة طفليها وزوجها .

إنها لتحن إلى ضم هؤلاء الصغار الراحلين . . وإلى صدر زوجها الرحيب تسند إليه رأسها الصغير فتشعر بالأمن والسلام بين أحضانه وفى رعايته ... ولكن أين ... أين فى الدنيا الرحمة وأين أين تلتمس العون والمساعدة وأنى لها بنفقاتها ونفقات

إبنتها ! ؟ .

لم تمكث سلوى كثيراً فى المستشفى وخرجت لتسير كالعرجاء التى فقدت ساقها فزادت آلام أمها لأن هذا العرج يذكرها دائماً بالحادث المروع الذى أفقدها أحب الناس إليها .

كما أنها كانت تشفق على إبنتها — رغم أن الطبيب طمأنها بقرب زوال هذا العرج — أن تظل حياتها بهذه العاهة المدمرة لجمال المرأة .

لكن لم يكد ينقضى شهران حتى عادت إبنتها تشكو آلاما فظيعة فى عظام فخذها . ظهرها فعرضتها على ثلاثة من الأطباء وجدت فى علاجها دون جدوى .

وكانت الآلام تزداد على مر الأيام حتى حرمت البنت من نومها وأخيراً قضت ليلتين تبكى وتنتحب وأمها لا تدرى ماذا تفعل فأخذت تنتقل بها من طبيب إلى آخر تتوسل مستعطفة لينقذوا لها الطفلة من آلامها وهى كل ماتبقى لها من عزاء وذكرى لحياتها الماضية وقد جاوزت العاشرة وأصبحت تؤنسها وتتحدث إليها وتجد فى مجلسها أنسا وسلوى وفى صحبتها عزاء كبيراً .

وفى طريقها إلى طبيب آخر التقت بحسام وكان قد نقل إلى القاهرة وأصبحت تراه من وقت لآخر فى الطريق أو عند زوج أختها فصحبها إليه وكان الوقت ليلا فلم ير الطبيب بداً من حقن

الطفلة بمنوم لما رأى من بكائها وآلامها ونصحها بالذهاب فى الصباح إلى إخصائى فى العظام صديقه .

عرض عليها حسام أن يوصلها فقبلت لأنها كانت تحس بحاجتها إلى مخلوق يقف إلى جوارها ويعطف على آلامها وتفضى إليه ببعض همومها لتخفف من أعباء قلبها التى ناء بحملها .

وأمام نظراته المستجدية المتلهفة لم تر بأساً من دعوته للدخول إلى بيتها للتحدث قليلا . لكنها عندما لمحت نظراته الصارخة بالرغبة الرعناء ، أوجست خيفة وندمت أن سمحت له برفقتها إلى داخل بيتها .

لم يدعها تستسلم لأفكارها بل انطلق يتحدث إليها ذاكراً أيام طفولتهما السعيدة وخطبتهما وحبهما مذكراً إياها بأنه مازال عند عهده وأخيراً واجهها قائلا :

ـ سعاد . . . ألا تسمحين لى بأن أرعى صغيرتنا سلوى وأشرف على علاجها ؟ أود أن تدعونى « بابا » بدلا من عمى .

ـ ياليت هذا كان فى استطاعتى . . . ! ؟

ـ ولماذا ياسعاد ؟

ـ لم أعد أصلح للزواج .

ـ هلا زلت تذكرين زوجك ؟

ـ وكيف أنساه . . . ؟

— لم أقل ذلك لكن الأيام كفيلة بتقديم العزاء .

— لكنى لا أستطيع الزواج لأن فيه . . فيه سعادة كبيرة ولن أحتمل فقد مثل هذه السعادة مرة أخرى . . . أعفنى . . . أعفنى من هذا الأمر .

فنهض واقفاً واستأذن فى الخروج وعند ما بلغ الباب استدار ثانية ورجاها فى استعطاف ، هل تأذنين لى فى قبلة طالما حلمت بها ، ولما لم تمانع ضمها إليه فى عنف وطبع على شفتيها قبلة طويلة وحشية أحست معها أن شفتيها تتمزقان فتخلصت من بين ذراعيه بسرعة وسألته معاتبة :

— لماذا فعلت ذلك يا حسام ؟ فأجابها وهو منكس الرأس ، إنى خجل وآسف . . بل إنى على استعداد لبذل كل ما أملك فى سبيل أن أظفر بك زوجة بل إنى أضحى بمائتى جنيه من أجل ليلة واحدة معك ، واستدار سريعاً وتركها ذاهلة فى مكانها .

وفى اليوم التالى توجهت للطبيب الذى أخبرها بأن هناك بعض تكسر فى عظام العمود الفقرى كما أن جزآ منها فى غير موضعه الطبيعى والأمر يحتاج إلى عملية سريعة ولايوجد من يقوم بها سوى طبيب أمريكى فى مستشفى القوات المتحالفة وهو يتقاضى عن هذه العملية مائتى جنيه .

أسقط فى يدها ووقعت فى حيرة من أمرها . . . إن ما معها

من النقود أوشك على النفاد وقد صرفت معظمه فى علاج إبنتها ومنذ وقت غير قليل وهى تبحث عن عمل لتحفظ على نفسها كرامتها ولتكسب رزقها ورزق وحيدتها لكنها لم توفق وإذا وفقت فأين تجد مائتى جنيه الآن ؟

وهى تعلم أن أختها لا تملك كثيراً كما أن زوجها موظف محدود الدخل ورب أسرة ذات أطفال ومع ذلك فقد سألتهما عوناً لكن لم يكن لديهما ما يكفى .

وإذا باعت أثاث بيتها — وهى لا تستطيع الاستغناء عن كثير منه — فلن يفى بشىء ... وأخيراً فكرت فى حسام لكنها استبعدت أن يقبل رجل إنقاذ طفلة غريمه الذى اختطف منه خطيبته .

وإذ هى فى حيرتها تذكرت كلمات حسام « إنى أضحى بمائتى جنيه من أجل ... » فاندفع الدم حاراً إلى رأسها وتصبب العرق بارداً من أنحاء جسدها ... أجل لم يبق إلا الشرف ... لم تعد تملك سوى عفتها وجسدها ... فأطرقت فى جلستها وقد أحست بذلة الصفقة وهوانها ...

لكنها حملت عقلها على التغلب على كل الاعتبارات العاطفية ومواجهة الحقائق وموازنتها ... أنها إبنتها وهى كل ما بقى لها فى الحياة ومن ذكرى زوجها الحبيب ... إنها أغلى ما تملك فى

الوجود ولو اقتضتها حياتها لما ترددت لحظة فى التضحية بها من أجلها . . . والآن ليس لديها ما يمكنها بذله فى سبيل إنقاذها من هذه العاهة المريعة سوى جسدها . . وماذا يضير قانون الشرف إذا كان فى الخروج عليه مرة سعادة إبنتها وإنقاذها من آلامها ؟

آلمتها الفكرة لكنها أسرعت إلى التنفيذ قبل أن تتغلب عليها عاطفتها فاتجهت إلى أقرب تليفون وتحدثت إلى حسام قائلة :

ـــ أحقاً ما قلته لى أمس ؟

ـــ عماذا ؟

ـــ عن دفع مائتى جنيه .

ـــ أجل وأكثر من ذلك .

ـــ إنى لا أساوى كل هذا المبلغ .

ـــ بل وزيادة .

ـــ إذن فموعدنا غداً فى الثامنة مساء .

ـــ أوضحى الأمر أرجوك .

ـــ لا أستطيع . . يكفينى منك نعم أو لا .

ـــ سأحضر .

وعادت تجرى إلى بيتها ودخلت على إبنتها فوجدتها نائمة فى فراشها وقد ارتسمت على وجهها علائم الألم الذى تعانيه فهطلت الدموع من عينيها وهى تحدث نفسها « لماذا أفكر فى نفسى

ومشاعرى قبل أن أقدر وجود هذا المخلوق الذى ألقيت به إلى الحياة وما سيعانى من آلام على مر السنين ؟ » .

وكأن هذا المنظر قد بعث بالهدوء إلى نفسها فرضيت عن قرارها وأسلمت نفسها للفراش فنامت حتى الصباح .

لكن الساعات مضت متثاقلة وأحست بقلبها يتمزق طوال يومها وما أن خيم الظلام على الكون حتى ازدادت ضربات قلبها وتجهم وجهها واغروقت عيناها بالدموع غير مرة لكنها حملت نفسها على التزين والاستعداد لموعدها .

وما أن وافت الساعة الثامنة حتى أقبل حسام ومد لها يده بمظروف صغير فتحته بيدين ترتجفان لتجد بداخله ورقتين من فئة المائة جنيه ثمن شرفها .

التفتت إليه فلم تجد فى نظراته الرغبة الصادقة بل وجدت إشفاقاً ورحمة فزاد ذلك فى آلامها وألقت بجسدها سريعاً بين أحضانه فأحست بقبلاته فاترة رفيقة وكأنه يقرب معبوداً مقدساً يكن له التقديس والإكبار وأحست بقلبه يزداد نبضه فصرخت به « إنك تدفع أكثر مما تأخذ ياحسام . . . إنك لا تريدنى » .

وانفلتت من بين ذراعيه وهى تجهش بالبكاء ثم ألقت إليه بماله قائلة « لن أستطيع . . لن أستطيع أن أمضى فى هذه التجربة » وقد أدركت أنها كانت مخطئة وربما مخادعة إذ عرضت عليه هذا

تعرض .

لكن حساما همس لنفسه « الحمد لله » ثم التفت إليها يرجوها ويتوسل إليها أن تقبل هذا المال لأنه يدرك حاجتها الماسة إليه فرفضت فى إصرار غريب ورجته أن يتركها وحدها فانصرف .

وما أن غادر البيت حتى انخرطت فى البكاء ووقفت أمام صورة زوجها تستغفرها « سعيد .. أغفر لى يا سعيد .. لقد كان ذلك من أجل سلوى .. إنها كل أملى فى الحياة وإنى أحبها .. أين أنت يا سعيد إنى فى حاجة إليك ؟ »

وأحست بحاجتها القوية إلى من يقف إلى جوارها أو مايسرى عنها فى محنتها فاندفعت إلى مائدة الزينة تبحث عن بعض حاجات عزيزة على زوجها تستعيد معها ذكراه فوجدت من بينها مجموعة من الرسائل كانا يتبادلانها فى أيام غيابه فى بعض عمله فأخذت تقرأها رسالة بعد أخرى وهى تستشعر بهدوئها يعاودها رويداً رويداً إلى أن عثرت فى نهايتها على مظروف أزرق لم يسبق لها رؤيته وقد كتب عليه بخط زوجها « إلى الملاك الذى أحبه ... ليوم عصيب قد يصادفه » ففتحته لتجد فيه ورقتين من فئة المائة جنيه مع رسالة موجهة إليها :

« زوجتى الحبيبة

هذا هو نصيبك فى ثمن عشنا الصغير احتفظت به لك عسى

أن ينفعك فى يوم عصيب لا أرجو أن تصادفيه فى حياتك لكن إذا شاءت الأيام أن تمتحنك امتحاناً قاسياً واحتجت إلى هذا المال فإنى سأكون سعيداً بحصولك عليه ومعونتك به .. لأنه من عشنا الصغير الذى بدأنا فيه حياتنا السعيدة فهو لك مع حبى الكبير للزوجة التى قدست اسمها فى قلبى ؟ سعيد »

وعندما انتهت من الرسالة كانت ممددة على الأرض وهى تجهش بالبكاء والشهيق وقد بللت رسالة زوجها بدمعها وقبلاتها وما أن استيقظت سلوى فى الصباح حتى أخبرتها فى غمرة من السعادة بالنبأ فبدا الخوف على الطفلة من المستشفى لكن عندما أدركت ضرورة ذهابها إليها توسلت إلى أمها أن يصحبها عند العملية « عمى حسام » لأنها تفضله على زوج خالتها وتحبه أكثر منه فأطرقت الوالدة قليلا ثم طلبت من سلوى أن تطلب منه ذلك بنفسها فى التليفون فعانقت أمها فى فرح .

ثم أسرعت لتتحدث إليه فأكد لها أنه سيكون فى انتظارها فى المستشفى فى الصباح الباكر .

وفعلا كان فى استقبالهما عندما وصلا إلى المستشفى وقد أشعت السعادة من عينيه وارتسمت على شفتيه ابتسامة عذبة .

ولما فرغ الطبيب من إجراء العملية خرج لينبئها بنجاحها نجاحاً باهراً وبقرب شفاء ابنتها الأكيد فأشرقت عيناها بدموع

تغرح بينما ضغط حسام بقبضته على كفها وهو يهمس : سعاد ... لقد أخبرتنى سلوى وأنت تتحدثين مع الطبيب قبل إجراء العملية عن كيفية حصولك على المال .

— أحقاً .....؟

— لقد كنت فى حاجة إليه ورفضته منى لكن الله كان بك رفيقاً .

— أنه لا ينسى عباده قط .

— لكن سلوى طلبت منى أيضاً أن أرعاك لا سيما فى غيابها لأنك بحاجة إلى صديق .

— وهل قالت ذلك أيضاً ؟

— أجل . . . فهل تسمحين لى أن أرعاكما منذ اللحظة ؟

فأطرقت سعاد فى خجل فجذبها إليه وطبع قبلة خاطفة على وجنتها وانصرفا سوياً وقد عقدت السعادة لسانيهما .

فهـــرس

حلم ليلة ٥

العبيـــد ٢٥

أطلال تتداعى ٥١

رئيس البنائين ٦٧

دنيا جديدة ٧٧

ذات ليلة ١٠٥

محنة الإيمان ١١٧

الثـــأر ١٢٥

أصداء الماضى ١٣٥

صـفقة ١٥٣

obeikandi.com

كتب للمؤلف

بالعربية:

أحلام الشبيبة	مجموعة قصص	النهضة المصرية
صور من الشرق	تراجم	» »
شوقي وحافظ	»	» »
العلاقات الزوجية	اجتماع	نقد
عذراء أسيوط	رواية مترجمة	النهضة المصرية

بالانجليزية:

Islam, Renaissance Bookshop.

Mohammad, the Prophet of Islam, Renaissance Bookshop, 9 Adly Pasha Street.

obeikandi.com